1re. Année, No. 16

Vendredi, 1-9-1933

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

....

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون ٤٢٩٩٢

بدل الاشتراك

ص
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة فى الخارج
١ ثمن العدد الواحد

....

تصدر مؤقتاً
فى أول كل شهر ونصفه

العدد السادس عشر « القاهرة فى يوم الجمعة أول سبتمبر سنة ١٩٣٣ — ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ » السنة الأولى

فهرس العدد

على الشاطئ . . . !

الشاطئ شاطئ استانلى ! واليوم يوم الأحد ! والطرقات الجميلة الصاعدة إلى هذا الخليج البهيج تصب فيه أنماطاً من الناس ، فى أنماط من اللباس ، وكلهم فى سن أهل الجنة ! وكنت فى هذا التيار الحار المتدفق كأننى السمكة الغريبة ، تفقد الاختيار ، وتخشى كل شىء !

هبطت مع الهابطين إلى هذا الشاطىء على سلم من سلالمه ، ثم ارسلت فيه عينى فاذا هو مستدير على صدر الماء ، استدارة الهلال البازغ على صدر السماء ، واذا النجوم الزواهر من الأنس تختلج فى قلب هذا الهلال اختلاج العواطف الرقيقة ، تتماسّ فى رفق ، ثم تنفرج فى سهولة ! !

أخذت أخطو وئيدا بين العذارى المتجردات ، على استحياء وارتباك ! فلما لم أجد فيهن حتى من تتقى النظر باليد ، كما فعلت « متجردة النابغة » حين سقط نصيفها ولم ترد اسقاطه ، أرسلت نفسى على طبيعتها فى هذا الحمى المباح ، وذكرت الاستاذ « الثعالبى » وهو يقول لى بالأمس فى لهجة جازعة : « اذهب بربك الى (استانلى) ثم صف ما تراه »

هاتان عيناى يا صديقى مفتوحتين ! وهاتان أذناى مرهفتين ! فماذا أرى وماذا أسمع ؟؟

أكشاك أنيقة الصنع والوضع ، تدرجت طبقاتها الثلاث على حضن الشاطىء ! ومظلات شتى الألوان قد ركزت هنا وهناك فى منحدر الساحل ، وجمع حاشد عارٍ كسوق الرقيق فى ألف ليلة وليلة

قد بعثر أمام الأكشاك وتحت المظلات وفوق الرمال وبين المياه . . وصراع لذيذ عنيف بين أفواج البر، وأمواج البحر، تتخلله صيحات وضحكات كرنين الفضة المصفاة ، وأحاديث كهمس الأوتار تطير من بين الشفاه البواسم ؛ كما تطير أنفاس الصبى الحالم ، ولكنها لا تصعد الى حيث يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ! وبيئة أجنبية ناسها غير ناسنا ، واحساسها غير احساسنا ، ولغتها لغة فرنسا لا لغة مصر ، وسمرتها سمرة الشمس ، لا سمرة الجنس !!

فعلامَ اذن هذا الجزع الباكى ، والقوم انما يجرون على أعراقهم ، ويعملون على مقتضى أخلاقهم ، وبين فتياتنا وفتياتهم من العرف الاسلامى حجاب ، ومن الحياء الطبيعى وازع ؟ !

كنت ألقى على نفسى هذا السؤال حين جرجر البحر احدى موجاته الضخام الى أعلى الساحل ، فجريتُ الى فوق أتقى هذا المدّ المفاجىء فاذا بى واقف ازاء مُظلة جميلة منعزلة ، قد انبطحت تحتها فتاة ناهد لم تقع العين منذ الصباح على أكمل منها صورة ! وكان ذعر السائرين من هجمة البحر قد لفتها لتنظر ، فلما وقع بصرها على نهضت نهضة الظبي الفزِع تحي بالعربية أستاذها القديم !

— أوه ! فلانة ؟ !

— نعم ! ويسرنى أن أراك بعد خمس سنين

— هل أنت وحدك هنا ؟

— كلا بل معى أخى . . . وقد أتعبه صراع الامواج الثائرة فذهب الى (الكابين)

— وكيف حال البك ؟

— الحمد لله خير حال ! وما اكثر سؤاله عنك وأشد شوقه اليك ! لقد كان جالسا بالكازينو ثم انصرف الى البيت منذ قليل

قالت ذلك تلميذتى الارستقراطية المسلمة وهى تنصب كرسيا طويلا من القماش دعتنى الى الجلوس عليه ، ثم جلست هى على كرسى آخر ، وكانت كأمها حواء لايستر جسمها العارى الا « ورقتان » خصفتهما عليه ، من أمام ومن خلف ! فسرعان ماذكرت ذلك المكتب الفخم الذى كانت تجلس قُبالتى عليه لتستعد لامتحان البكالوريا وهى ملففة بثوبها الأزرق الانيق المسبل ، وعيناها الساجيتان لاتفارقان الصحيفة حياء وخفرا ، وثغرها الحيِيُّ الدقيق لا يرسل سهل الكلام الا فى تلعثم وبطء !!

لم تدعنى الآنسة فى ذكراى الا ريثما ردت التحية على فتاة فى مثل حالها وجمالها ، كانت تسير فى رفقة شاب شديد السمرة غطى كتفيه شعر كثيف ، كصوف الخروف

— هذه ابنة فلان وهذا الذى معها أخوها ، وهذه ابنة فلان وهذا ابن عمها ، وهذه المضطجعة فى الشمس بنت فلان ومحادثها صديق من أصدقاء أخيها . . . . .

— لولا علمك يا آنسة لحسبت هؤلاء جميعاً أجانب !

— وما الذى يحملك على هذا الحسبان ؟

— هيف القد واكتناز اللحم واتساع الحرية

— ذلك من أثر الرقص والرياضة ، ستكتب ولا شك عن هتانلى شيئاً فى الرسالة !

— وهل قرأت ما كتب عنه ؟

— قرأته ولم أسغه ، لانه شديد المبالغة سطحى النظر ، وأى بأس فى أن تمتع المصرية جسمها كله بأشعة الشمس ، وماء البحر كالغربية ؟ ؟

— لا بأس ، وأظنها تدرك ذلك كله فى شاطىء خاص وفى لباس مناسب

— ان شمس الشواطىء كما تعلم انما تقصد لخصائص أشعتها ، وكلما تعرض أكثر الجسم لها ، كان أكثر انتفاعا بها ، والامر فى الشواطىء كالامر فى المراقص والمرايض ، يهيمن على الحياة فيها روح رياضية عالية ، تغنى كل إنسان بشأنه عن شأن غيره ، فالراقص لا يفكر الا فى الرقص ، والمرتاض لا يفكر الا فى الحركة والمستحم كذلك لا يفكر الا فى الامواج والاشعة

— ابدئى بالمثال قبل القاعدة يا آنسة . اين تجدين الروح الرياضية فى هذه المرأة التى علت صدر هذا الرجل لتتعلم فوقه السباحة ؟ وأين تجدين الروح الرياضية فى هذين الجسمين الراقدين على الرمل يتلامسان بشهوة ، ويتناجيان بنشوة ، وقد انمحى من حولهما البحر والشاطىء والناس ؟ ؟

أرى يا آنسة أن المرأة تسىء الى نفسها بهذا التبذل - حتى من الجهة النسوية الخالصة - فانها متى فقدت سحر المحجوب ، وجاذبية المجهول ، أصبحت كسائر الأناث من سائر الحيوان

عفواً يا آنسة اذا اصطنعت فى خطابك لهجة الأستاذية ، فانها لاتزال أقوى الصلات التى أمتُّ بها اليك

ألا تلاحظين أننا فى الجد نتطور ببطء مؤئس ، وفى الهزل نتطور بسرعة جامحة ؟ ! لقد كنا بالأمس نتجادل فى السفور ، وها نحن أولاء اليوم نتجادل فى العُرْى !!

أستودعك الله يا آنستى ! وأسلم على أبيك وأخيك

ثم أخذت طريقى على الشاطىء الشهوان وفى نفسى كلام حبسته ! على أن من الظلم الموروث أن الرجل يشارك المرأة فى الذنب ثم يفردها بالعقوبة ! فالأب يقود ابنته عارية الى الشاطىء ، والزوج يجلس مع زوجه عارية على المقصف ؛ والأخ يتعرى مع أخته فى الكشك والبحر ، ثم يندلع لسان النقد على المرأة وحدها فيتهمها بخنق الفضيلة ويرميها بذبح الخلق !!

ياقوم ، لقد فتشتم فى الشواطىء كثيرا عن حياء المرأة ، ففتشوا فيها ولو قليلا عن نخوة الرجل !!

الاسكندرية

احمد حسن الزيات

الأمل اليائس

للدكتور طه حسين

ولدت فى آخر القرن السابع عشر سنة ١٦٩٧ . وماتت فى آخر القرن الثامن عشر سنة ١٧٨٠ ، وجمعت لنفسها من مزايا هذين العصرين ، ما جعلها أبرع الناس أدبا وأشد الناس شكا ، وأوسع الناس أملا ، وأقتم الناس يأسا ، وأظهر الناس فرحا ، وأعمق الناس حزنا . ولكنى أنسيت أن أسميها ، وقد كان يجب أن أبدأ بتسميتها هذا الحديث . فهى مارى دى فيشى شمبرند Marie de Vichy Champrond التى يعرفها تاريخ الآداب الفرنسية باسم مدام دى ديفاند . Madame du Deffand .

كان مولدها ونشأتها فى هذه السنين القاتمة التى ختمت حكم لويس الرابع عشر . وأدركها اليتم طفلة فارسلت الى دير من هذه الأديرة التى كان يرسل اليها بنات الأغنياء . وكانت أسرتها عريقة فى الشرف والنبل ، متقدمة فى خدمة الدولة . محتفظة بمكانة رفيعة بين أشراف الأقاليم . وكانت هذه الاسرة من أشراف بورجونى ، Bourgogne وأهل هذا الاقليم من فرنسا معروفون بالنشاط القوى وحدة الذهن . وذلاقة اللسان ، وحب الحياة ، وإيثار ما تقدمه الى الناس من لذات . فلم يطل مقام هذه الصبية فى ديرها الارستقراطى حتى ظهر من حديثها وسيرتها ما أقلق الاسرة . وأقلق رئيسة الدير . ويجب أن يكون هذا الذى ظهر من سيرتها وحديثها خطيراً جداً . فلم تكن أسر الاشراف لتقلق من شىء يسير . ولم يكن أهل الاديرة ليضيقوا الا بالشىء الذى لا يطاق . ذلك بأن حياة الناس فى ذلك العصر كان قد أخذها الفساد الخلقى ، من جميع نواحيها ، حتى استهانوا بكل شىء ، وتجافوا عما لم يكن يتجافى الناس عنه الا فى مشقة وعنف . وحسبك أن تعلم أن الاديرة كانت قد استحالت فى ذلك العصر الى قصور فخمة يلهو فيها من أبناء الأشراف وبناتهم من لم تسمح له ظروف الحياة بالعمل فى السياسة أو فى الجيش ، ومن لم تتح لهن ظروف الحياة أن يظفرن بالزوج . وكان بنات الأشراف خاصة يتخذن من هذه الاديرة دوراً للعبث واللهو ، يسترن ذلك بستار رقيق من اسم الدين . ولم يكن ليتحرجن من استقبال الزائرين والزائرات ، ولا من اقامة الحفلات الراقصة ، بل كان الرقص والموسيقى جزأين أساسيين من برنامج التعليم الذى كان يلقى اليهن فيها : فاذا استطاعت صبيتنا هذه أن ترعج اسرتها ، ورئيسة الدير بما أظهرت فى سيرتها و أحاديثها من خروج على التقاليد ، فيجب أن تكون قد أتت أمراً عظيما . وهى قد أتت أمراً عظيما حقا ، فقد كانت تجادل فى الدين ولما تبلغ الثانية عشرة ، وكان جدالها هذا خطرا مخيفا . لأنها كانت تنكر أصول الدين انكارا . وقد استعانت الاسرة ورئيسة الدير على جحود هذه الصبية بعظيم من عظماء الكنيسة وخطيب من أبرع الخطباء فى عصره وهو ماسيون Massillon فدعى هذا الحبر للقاء هذه الطفلة ومحاورتها ، فلما رآها سمع لها وتحدث اليها وانصرف عنها يائساوهو يقول انها لظريفة. فلما سألته رئيسة الدير عما تصنع لردها الى طريق الحق أطال الصمت ثم قال : ضعى فى يدها كتابا من أرخص كتب الدين ، ثم لم يزد على ذلك شيئا . وذكرت الصبية حين تقدمت بها السن حوارها مع هذا الحبر العظيم ، فقالت : إن عقلى قد اضطرب أمام عقله ، وقالت انى لم أذعن لحجته وانما أذعنت لجلاله ؛ ومعنى ذلك أن الخصمين التقيا فلم يقنع أحد منهما صاحبه ، ولكن أكبر كل منهما صاحبه . فلما بلغت هذه الفتاة العشرين أوجاوزتها قليلا ، زوجت من رجل شريف ، عظيم الخطر ، من حكام الاقاليم . ولكنها لم تكد تقضى معه اشهراً حتى أنكرته وضاقت به وكرهت عشرته كرها شديدا . وكانت تقول عنه إنه يبذل أقصى مايستطيع ليسوءك ويصرفك عنه . على أنها قد اقنعته بالرحلة الى باريس . ولم تكد تصل الى هذه المدينة وتستقر فيها حتى اندفعت فى حياة اللهو والعبث ، اندفاعا لفت اليها الناس ، وجعلها موضوع الاحاديث فى هذه المدينة الباسمة اللاهية . وكان لويس الرابع عشر قد مات ، وكان أمر الدولة الى الوصى الذى أقيم على الملك ، الصبى لويس الخامس عشر . وكان هذا الوصى صاحب لهو لاحد له ، وصاحب مجون وعبث لاحد لهما أيضا . وكان الناس قد ساروا سيرته كأنما أرادوا أن يعوضوا ما فاتهم فى تلك الايام الحزينة التى ختمت حكم الملك الشيخ ، وما أسرع ما اتصلت صاحبتنا بقصر الوصى واشتركت فيما أقام فيه من حفلات ، ثم اتصلت بالوصى نفسه ، وأصبحت له خليلة ولكن حبه لها لم يتجاوز خمسة عشر يوما . على أنها قد ربحت من هذا الحب القصير ستة آلاف من الجنيهات الفرنسية ، تصرف لها فى كل عام ما امتدت لها الحياة . واسرفت صاحبتنا فى اللهو حتى أنكرها أصحاب اللهو من أهل باريس ، وحتى ساءت الصلة بينها وبين زوجها ، فافترقا دهراً ثم كان بينهما صلح لم يطل ، وعادا الى الفرقة . ثم كان بينهما صلح آخر ، قوامه أن يلتقيا على الغداء والعشاء . والا يعيشا معا ، ولكن هذا الصلح نفسه لم يتصل أيضا ، ففرق بينهما . وعاد الرجل الى قصره فى الأقاليم وأقبلت هى على لهوها فى باريس لا تدع

فنا من فنون العبث الا أخذت منه بحظ عظيم ، على أنها لم تكد تجاوز الثلاثين حتى تبينت أن ما هى فيه من الأمر باطل كله ، وحتى سئمت اللهو ، وعافته ، وأخذت تحس انصراف الناس عنها. فآوت الى أخ لها قسيس أقامت عنده دهراً ثم انصرفت عنه الى أخ آخر لها فى الأقاليم ، ثم عادت مرة أخرى الى باريس . واتصلت بقصر من قصور الأشراف كان يؤوى أكبر من تعرفهم فرنسا وأوربا من الأدباء والفلاسفة ، وأصحاب الفن ، وفى هذا القصر ظهرت قيمتها الأدبية ، واستكشفت براعتها فى الحديث وتبين الذين عاشروها أنها امرأة ليست كغيرها من النساء ، بل ليست ككثير من الرجال ، وانما تمتاز بقلب ذكى ، وعقل قوى ، ولسان فصيح عذب ، ومهارة فى تصريف الحديث لا تبلغ الاعجاب وحده ، ولكنها تبلغ اعجاز المحدثين مهما تكن منزلتهم ، ومن ذلك الوقت أخذ أمر هذه المرأة يعظم . وشأنها يرتفع ، لا من حيث انها امرأة جميلة خلابة . تحب اللهو وتسرف فيه ، فقد كانت فى ذلك الوقت قد بدأت تقصر عن اللهو وتعرى افراس الصبي ورواحله ، كما يقول زهير ، بل من حيث انها امراة اديبة اريبة يستطيع ان يستمتع بحديثها ، وعشرتها ، وبراعتها ، ذوو العقول . وقد آثرتها صاحبة القصر إيثاراً عظيما حتى لم تكن تصبر على فراقها ، وأحبها فولتير ، وكلف بها منتسكيو ، وأطاف بها أعلام الادب ، والفلسفة من الفرنسيين يستبقون الى مودتها ، وما هى الا أن تتخذ لنفسها دارا فى باريس وتدعو اليها أصدقاءها هؤلاء من الأدباء والعلماء والفلاسفة يسمرون عندها يوم الأربعاء من كل أسبوع . ثم تضيق هذه الدار بمن يقصد اليها من رجال فرنسا وأوربا على اختلافهم ، فتتحول عنها الى دار أخرى رحبة تستأجرها فى دير من هذه الأديرة الارستقراطية فى باريس . وفى هذه الدار التى استأجرتها كانت تقيم قبلها مدام دى منتسبان خليلة لويس الرابع عشر ، تلك التى ملأت حياة الملك العظيم لذة وإثما ، وكلفت رجال الدين من حوله مشقة وجهداً ، والتى كانت تؤوى الى هذا الدير من حين الى حين تستغفر الله من خطاياها ، وتضرع اليه فى الوقت نفسه أن يحفظ عليها هذه الخطايا . أقامت صاحبتنا فى هذه الدار ، ونظمت استقبالها لأعلام فرنسا مرتين فى الأسبوع يتناولون عندها العشاء ، ويسمرون الى قريب من آخر الليل ، ويتحدثون فيما شئت من أدب وعلم ، ومن فلسفة وفن ، ومن سياسة وحرب . ولكنها لم تكن تحب أن تشارك الأدباء والعلماء والفلاسفة فيما كان يجرى بينهم من حوار؛ لأنها كانت تكره الادب والعلم ، وكانت تكره الفلسفة خاصة وتضيق بها ضيقا شديدا ، وكانت تعنى بأشخاص زائريها أكثر مما تعنى بما كان عندهم من علم ، أو أدب ، أو فلسفة . كانت مسرفة فى الشك ، وكان إسرافها فى الشك يصرفها عما كان يكلف به الناس فى عصرها من هذه الفلسفة الحرة الغالية التى كانت تعمل فى الهدم ، أكثر مما كانت تعمل فى البناء .

وتتقدم السن بصاحبتنا وقدمات زوجها وأصبحت حرة حتى أمام القانون ، وقد جدت فى تنظيم حياتها وانصرفت عن اللهو والمجون الى حياة الجد ولذة الحديث والسمر ، ولكنها على ذلك اتخذت لها خليلا عاشت معه عيشة الأزواج ، لم تكن تحبه ولكنها لم تكن تكرهه ، انما كانت تستعين به على احتمال الحياة ، كما كانت تستعين بكل شىء على احتمال الحياة ، فقلما عرف تاريخ الآداب امرأة ضاقت بالحياة كما ضاقت بها هذه المرأة ، بل قلما عرف تاريخ الآداب رجلا ضاق بالحياة كما ضاقت بها هذه المرأة . كانت متشائمة كأشدما يكون التشاؤم ، وكانت تردد هذه الكلمة التى تقربها من أبى العلاء وهى : إن شر من ابتلينا به من الشقاء ، انما هو الحياة . وكانت تستعين باسرافها فى المجون والعبث ، ثم فى الجد والانتاج الأدبى على احتمال الحياة ، ولعلها لم تله ، ولم تعبث ، ولم تجد الا لتنسى الحياة وتنصرف عن نفسها . فقد كانت تكره العزلة وتخافها خوفا شديداً ، فكانت تسهر الليل ، ولا تنام الا قليلا فى النهار ، وتنفق وقتها قارئة أو لاهية ، أو مستقبلة . ولا تكاد تبلغ الخمسين من عمرها حتى يتم الله محنته لها ، وحتى يأخذها الشقاء من كل وجه ، فهذا حجاب رقيق يلقى شيئا فشيئا بينها وبين النور ، ثم يتكاثف هذا الحجاب قليلا قليلا ، وهى تحس ذلك وتجزع له وتلجأ الى الاطباء والسحرة ، والمشعوذين ، فلا تجد عند أحد منهم شيئا . والحجاب يتكاثف ويتكاثف ، حتى يستحيل الى سور صفيق يقطع كل سبب بينها وبين الضوء . واذا هى عمياء .

أفتظن ذلك قد غير من سيرتها أو اضطرها الى شىء من القصد والاعتدال ، ليس من شك فى أنها قد حزنت لذلك حزنا عميقا ولكنه حزن اضيف الى حزن . حفظته فى أعماق نفسها ولم تظهر منه للناس شيئا . انما كتبت الى بعض أصدقائها من أعلام الادب والسياسة تنبؤهم بهذه الكارثة فمنهم من رق لها كفولتير ، ومنهم من عبث بها كمنتسكيو ، وكلهم قدمضى فى اكبارها ، والاختلاف اليها ، لم يغير من سيرته شيئا كما لم تغير هى من سيرتها شيئا . فظلت مائدتها تقام يوم الاثنين والاربعاء من كل أسبوع ، وظلت تختلف الى الاوبرا والملاعب ، وتشترك فى الحفلات كما كانت تفعل من قبل . واتخذت

« البقية على صفحة ٤٠ »

بين اليأس والرجاء

للأستاذ احمد أمين

صوتان لابد أن يرتفعا فى كل أمة ، ويجب أن يتوازنا حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، صوت يبين عيوب الأمة فى رفق وهوادة ، و يستحث على التخلص منها والتحرر من قيودها ، وصوت يظهر محاسنها ويشجع على الاحتفاظ بها والاستزادة منها . والصوتان معا إذا اعتدلا كونا موسيقى جميلة منسقة تحدو الأمة الى السير إلى الأمام دائما ، هى موسيقى الجيش تبعث الرجاء والأمل ، وتمنى بالنصر والظفر ، فان بغى أحد الصوتين كانت موسيقى مضطربة تهوش النفس وتدعو إلى الفوضى والارتباك ، وإذا كان « الدور » فى الموسيقى يكون منسجما كله ، ويشذ أحد أصواته لحظة فيكون « نشازا » يخدش السمع ويجرح النفس ، فما ظنك « بدور » كله « نشاز » ؟

* * *

مما يدعو إلى الأسف أن صوتا فى الشرق علا كل صوت ، وهو ليس خير الأصوات واحبها إلى النفس ، هو صوت اليأس والتثبيط يتغنى به كل أصناف الدعاة ، فخطيب المسجد تدور خطبته دائما على أن من يخطبهم ليسوا مؤمنين حقاً ، فقد ارتكبوا من الأوزار ، واجترموا من الآثام ما أخرجهم عن الأيمان الحق ، وأبعدهم عن الدين الصحيح ، ولو آخذهم الله بأعمالهم لأمطرهم حجارة من السماء ، أو خسف بهم الأرض ، ثم يصب هذا المعنى كل أسبوع فى قالب ، وكل القوالب تختلف أشكالها ، ويتحد معناها ، ويخرج السامع دائما وقد ملأه اليأس ، وانقطع به الرجاء ، الا أن يتداركه الله بعفو ليس جزاء على عمل .

ودعاة اللغة والأدب يلحون فى أن اللغات الأجنبية خير من اللغة العربية ، وأن الأدب الأجنبى أدب الثقافة والفن والعلم ، ولا شيء من ذلك فى الأدب العربى ، وأن من شاء أن يفتح عينيه فليفتحهما على أدب أجنبي ولغة أجنبية ، وإلا ظل أعمى ، وموجز دعوتهم أن يتحول الشرق فى لغته وأدبه إلى الغرب فى لغته وأدبه ، لا ان يختار من لغة الغرب وأدب الغرب ما تلقح به لغة العرب وأدب العرب .

ودعاة الاجتماع أدهى وأمر ، فليس فى الشرق كله ما يسر ، قد جرده الله من كل حسن ، فلا طبيعته جميلة ولا مناظره جذابة ، ولا شيء فيه يأخذ باللب ويدعو إلى الأعجاب ، والقمر فى الغرب أنور منه فى الشرق ، والبحر الأبيض قد جمل منه ما لامس الغرب ، وقبح ما لامس الشرق ، وكل شيء فى عادات الشرق وتقاليده تعافها النفس ، وينفر منها الطبع ، وعلى الجملة فالله تعالى الواهب ماشاء لمن شاء قد جمع الحسن كله فى ناحية ، وقال له كن الغرب فكان ، وجمع القبح كله فى ناحية وقال له كن الشرق فكان . وهم اذا لم يقولوا ذلك كله جهارا آمنوا به ايمانا ، وصدرت عنه أفعالهم ، واتجهت اليه حياتهم .

ودعاة العلم من هذا الطراز ، فكتب العلم العربى انما تصلح لدارس التاريخ أو طعمة للنار ، وماذا فيها إلا تخريف أو تحريف ، قد كانت نتاج القرون الوسطى ، ونحن نتاج العصر الحديث ـ ومالى وللسياسة ودعاتها فلأهرب منها اتقاء لنارها ـ ومجالسنا صدى لهذا الصوت ، فاذا استثنيت عُشر معشارها فكلها نقد للأخلاق ، وطعن فى حياة الشرق ، وتهجم على حال أمتهم ، وتجهم لكل ما يصدر منهم . وقل أن تسمع صوتا ينطق بمدح أو يعجب ببطولة ، أو يتغنى بعمل مجيد .

هذه نغمة مملولة كانت أجنى على الشرق من كل عيوبه ، ولن تفلح أمة من غير ذخيرة تعتز بها ، ومجد طارف وتليد تعتد به ، ونعرة قومية تدعوها الى الفخر والاعجاب . ولأمر ما قال تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وليس عبثا أن يكون فى أناشيد الألمان « ألمانيا فوق الجميع » وأن يعتقد بعض الأمم فى أنفسهم أنهم شعب الله المختار ، ونحو هذا مما ينعش الأمل ، ويدعو الى العمل .

تلك ظاهرة نفسية لا مجال لأنكارها ، فاعتقد الغباوة فى طفلك وكرر عليه اعتقادك تقتل كل مافيه من ذكاء ، واعلن أنه ذكى وشجعه على ما يبدر منه من ضروب الذكاء تستخرج أقصى ماعنده من عقل . وفى المثل الانجليزى « دَعَوا الكلب

عقوراً فشنق » يعنون أنهم اعتقدوا فى كلب سوءاً وسموه عقوراً وظلوا يطلقون عليه هذا الاسم حتى صدر منه من أفعال السوء ما استوجب قتـــله ، وفى أمثالنا العامية « قالوا للفلاح ياحرامى شرشر منجله » ذلك أن الاتهام يحمل على ارتكاب الجريمة من ناحيتين : من ناحية الايعاز ، فمن اتهمته فقد أوعزت اليه واقترحت عليه العمل ، وأظهرت له الجريمة ماثلة أمام عينه حينا بعد حين - ومن ناحية أن أكبر ما كان يمنعه من الشر خوفه أن يتهم بالشر ، فاذا اتهمته فقد كان مايخشاه ، وأقدم على ما كان يتحاماه ، هذا الى مايوحيه الاتهام الدائم من شعور باطنى يسيره نحو العمل وفق الاتهام ، وهذا هو السر فى أن بعض قوانين تسن لمعاقبة بعض أنواع الأجرام فتكون سببا لكثرة الأجرام ، ثم ترفع فيقل الأجرام ، لأن وجود القوانين كان موعزا بارتكابها - ولعل أنواعا من الآثام زادت بكثرة الكلام فيها من جهلة الوعاظ ممن لم يحسنوا دراسة النفوس وقوانينها

إذا سقط الفتى فأريته أن سقطته قابلة للعلاج ، وأخذت بيده لانتشاله ، كفر عن سقطته وعاد الى حاله ، وان أنت أريته أن سقطته لا تغتفر ، وأنه لم يصبح انسانا استمر يسقط أبداً - وكثـــير من الساقطين والساقطات لو أحسوا فى الناس استعداداً لقبولهم ، وشعروا أنهم يفسحون لهم فى صدورهم لعدلوا عن سقطهم ، ونهضوا من عثرتهم .

***

وبعد فليس الشرق ، بدعا من الخلق ، إن اعتز أحد بماض فليس أمجد من ماضيه ، وان كان لكل أمة غربية محاسن ومساو فللشرق محاسنه ومساويه ، وإن كانت مساوى الغرب لم تمنعه من نهوضه فلمَ تمنع الشرق مساويه من نهوضه ؟ ليس أعوق للشرق من هذا الصوت الكريه يصدر من دعاته فيبعث اليأس وينفث السم .

أيها الدعاة : كسروا قيثارتكم هذه التى لا توقع إلا نغمة واحدة بغيضة ، واستبدلوا بها قيثارة ذات ألحان صنعها طبٌ بأدواء النفوس عليم ، واكثروا من ألحان تبعث الأمل ، وتدعو الى العمل ، وتزيد الحياة قوة ، ولا تشهروا برذيلة الا اذا أشدتم بفضيلة ، ولا تسمعونا صوت المعاول ، الا اذا أريتمونا حجر البناء ؟

ســــتانلى باى !

لأســـتاذ كبير

لم يشأ أن يتعرف لقرائنـــا اليوم

نعم هو ستانلى باى الذى تكتب عنه الآن الجرائد اليومية كل يوم . والذى تكتب عنه المجلات الأسبوعية كل أسبوع . . .

فما للرسالة لا تساهم فى حديثه وقد أصبح حديث جميع من فى مصر . . ؟

أفليس هو الذى يزوره (الأستاذ الصاوى) فيتكلم عنه فى (الأهرام) يومين متتاليين ؟

أليس هو السر فى (قطر الندى) كما يسميه أهل الاسكندرية الظرفاء . وهو نفس مايسميه مدير السكة الحديدية (قطار البحر) ؟

أليس هو الذى حرمته القاهرة فقـــام فنانوها من مديرى المسارح والصالات ينقلون مشاهده الى مسارح القاهرة ؟

أليس هو الذى يشغل بال حكمدار بوليس الاسكندرية ورئيس نيابة الاسكندرية ؟

ثم أليس هو الذى استلفت أخيراً نظر رجال الدين ، على رغم ماهم آخذون فيه من توزيع (الطوابع) الجديدة التى ابتكروها لاسترداد هيبة الأسلام واعلاء كلمة الدين ؟ !

إن الرسالة وقد جعلت مهمتها أن تقاوم حيرة الأمة بتوضيح الطريق كما جاء فى عهدها ، لا تستطيع أن تفتك من قيود التحدث الى الأمة فى هذا الموضوع الذى يشغل الدنيا والدين على السواء !

ولقد كان من حق قراء (الرسـالة) أن ينتظروا كلمة من بعض أقلامها المعهودة أو تعليقا من حامل شعلتها الوضاءة . ولكن يخيل إلينا أن هـذه الأقلام قد استراح كل منها الى موضوع فهو لا يفتأ يتقلب فيه ، وقد استقل كل منها ببحث فهو لا ينفك يجول فى حواشيه ، فالدكتور عزام مثلا فى محمد اقبال وعبد الحق حامد وناەق كمال . والأستاذ العبادى مابين زرياب وعمر بن عبد العزيز . والأستاذ أمين أخيرا فى عكاظ والمربد . والدكتور طه أخيراً أيضا فى لغو الصيف ما بين مصر وما وراء مصر . . . ولكنّ لا عن طريق ستانلى باى والسلام !

فلم يبق بعد ذلك الا أن يتقدم الفضوليون الذين لا يريحون ولا يستريحون . وإنى أعوذ بالله - وأنا أثير هذا الموضوع - أن أكون أحد هؤلاء . . .

كنت من رواد هذا الشاطىء منذ نحو عشرة أعوام . ومازلت أزوره كل عام . فأقسم لك صادقا أن لست أدرى فيم هذه الضجة التى بدأت تقوم حوله فى هذه الأيام ؟ . . .

لقد كان الطريق اليه فيما مضى متعبا متربا . فتعبد واستقام . وكان شاطئه مجهدا مرهقا فى السير لغزارة رماله ، فقام الى جانبه افريز ممهد سهل يجعل السير فوقه متعة من متع الحياة . وكانت (اكشاكه) على غير نسق ، يقوم فيها الكبير الى جانب الصغير ، والوجيه الى جانب القمىء ، والعالى المشرف الى جانب المنخفض الوضيع . فتناوله الذوق السليم بالتهذيب حتى أصبح فى صورته الحالية درجات متماثلة بعضها فوق بعض كأنه القلادة الفرعونية تزين صورة ذلك الشاطىء الجميل .

هذا هو الشاطىء نفسه ما بين يومه وأمسه . . .

أما أهله فهم هم أهل « ذلك » الزمان . وأما زيهم فهو زى « هذا » الزمان ! فمن أراد أن يثور بالشاطىء فلست أدرى لم لا يثور بكافة الطرقات التى تغشاها السيدات ؟ وهل أنت ترى فوق ذلك الشاطىء إلا من ترى فى الترام وفى غير الترام من مسالك الأسكندرية وشعابها ؟ إنهم وحق أبيك ليس فيهم من خلق جديد ، ولكنهم يبدون فى الطريق بزى الطريق وينزلون إلى البحر فى زى البحر . فانظر أية الزينتين أدعى للفتنة وأيتهما أقرب الى الفجور ؟ . . .

هذه سيدة فى عربة الترام تراها وثوبها يغطى جسمها ـ وقبعتها تغطى رأسها ـ وحذاؤها يغطى رجليها . فهل حقيقة تغطى شىء من ذلك ؟

ألست ترى تحت القبعة شعرا مصفوفا ، وجدائل بعضها يتدلى فوق الأذن ، وبعضها يزين الجبهة ، وبعضها يمر فوق الخد لتلعب ضدية الألوان دورها فى إبراز محاسن العنصرين . . . اشراق **الوجنة** . وفخومة الخصل ؟ !

ثم انظر ماذا فعل الثوب بالجسم ؟ ألم يفصله تفصيلا ؟ ألم يلف مفرطحه وينهض بمسترخيه ؟ ويضغط هنا وينسدل هناك ؟ ثم ينشق فوق الصدر تلك الانشقاقة الماكرة التى يبدو منها انفلاق الثديين ! إنما مثل هذا الذى يفعله الثوب فى جسم صاحبته كمثل المعلم الذى يمسك (بمؤشره) فيؤشر به لتلاميذه على هذا الموقع من الخريطة حيث « مجمع البحرين » وعلى ذلك حيث « مفرق الجبلين » وهكذا . . .

إن كل قطعة فى لباس المرأة العصرية إنما يؤدى اليوم غرضا واحدا هو إبراز ذات المحاسن التى كان المقصود به أن تسترها .

أما اعتبارات الجد والاحتشام وما إلى ذلك من تلك الأغراض التى اتخذ الانسان الأول من أجلها اللباس فقد انطوت مع أهلها ومع زمانها . . . .

ثم دعنى أعود بك الى الحذاء . أفلا يتخذه النساء الآن مخرما مهلهلا مثقبا ؟ وهو على الرغم من كل ذلك يلبس فوق الجلد بغير جوارب أو نحوها .

فحدثنى بعد هذه الصورة وكن صريحا . . أى المنظرين أشهى للعين وألفت لنظرها ؟ أهى القدم الحافية أم المستورة تحت مثل هذا الحذاء المفضوح ؟ أهو الجسم الصريح الهادى على علاته أم ذلك المرائى المتحصن فى كل تلك الغلائل . . . هذه تبرز نهديه . . . وتلك تضغط كشحيه . . . وغير هذه وتلك من الخرق والمزق التى تغريك كل قطعة منها بكشف ما دونها ومعرفة ما وراءها !

إن ما يثير الرجل من المرأة ليس هو ظهرها المتجرد ، ولا هى سيقانها العارية ، ولكنها نظرتها الساجية التى ترخيها فى وجه الرجل كأنما تدافعه عن نفسها وهى إنما تراوده بها عن نفسه !

وليست المرأة العارية هى التى تبعث الفتنة ، فقد علمنا أن فى هذه الدنيا قبائل كاملة يعيش نساؤها عاريات وسط الرجال . فلم نسمع بأن ذلك كان مدعاة إلى أن يتخطف الرجال بعض هؤلاء النساء . ولا أن تشيع الفتنة والفساد فى تلك البيئة بسبب هذا العراء . ولقد علمنا من الجانب الآخر بأن الفتنة على شر ما تكون هنا فى طرقات القاهرة والأسكندرية حيث (الملاءات) التى تنسدل من الرأس إلى القدم ، ومع ذلك فأنها لا شأن لها إلا أن تحسر الأرداف ، وتنحسر عن بعض السيقان ، تبدى جانبا منها وتضن بالجانب الآخر ، إمعانا فى الفتنة واستفزازا للغرائز

* * *

أنى أحدثك صادقا أن الرجل يكون فى البحر أو فوق الشاطىء تموج حوله السيقان ، وتصطخب الأنداء ، وتتلألأ الظهور ، وتترقرق النحور ، فلا يشغله كل ذلك بمثل ما يشغله فى الطريق وقوف امرأة تميل على جوربها ترفعه ، أو انشغال أخرى بذيل ثوبها ترخيه على ساقها بعد إذ هفا به من فوقهما النسيم

* * *

وعلى الرغم من كل ذلك فأن النيابة . . . والبوليس . . . والصحافة . . . ورجال المطافىء . . . ورجال الدين . . . كل أولئك يعلنون الحرب عوانا على . . . . « شاطىء ستانلى باى »

« مصطاف »

احياء ذكرى ابن خلدون

نشر الأستاذ محمد عبدالله عنان فصولا فى الرسالة أرّخ فيها العلامة ابن خلدون، فكانت هذه الفصول ولا غرو خير ما كتب فى تاريخ هذا العلامة، بيد أن الأمر الذى يرجوه الناس ودعا اليه الصحافى العجوز فى مايو سنة ١٩٣٢ بالاهرام لم يتحقق ولم نصل اليه.

دعا هذا الصحافى الفاضل الى أحياء ذكرى ابن خلدون لكى ينتفع هذا الجيل وما بعده بهذه الذكرى الطيبة، وقام الكتاب على أثر ذلك يبينون ما نعمل لأحياء هذه الذكرى، وكان من رأى الأستاذ احمد زكى باشا أن ينصب له تمثال، وان يبحث عن قبره ليشيد. وكان من الآراء القيمة النافعة ان يطبع تاريخ ابن خلدون ومقدمته وينشرا على الناس بنفقات طبعهما. وهذا الرأى كان خير الآراء وانفعها، وقد انقضى عام وبعض عام بغير ان نرى أحدا قد نهض لأحياء هذه الذكرى.

ولقد كنت قرأت فى صيف سنة ١٩٢٣ للمرحوم تيمور باشا بحثا فى الهلال، أبان فيه انه لا يوجد فى ماطبع من مقدمة ابن خلدون طبعة صحيحة، وأنه رأى بخزانة الأستاذ زكى باشا نسخة مخطوطة صحيحة بقلم ابن خلدون نفسه، فرجعت الى احمد زكى باشا لأسأله عما قال تيمور باشا فأجاب بان لديه حقيقة نسخة مخطوطة مصححة بقلم ابن خلدون، وأنه فى سنة ١٩٣٠ أتى بصورتها عن النسخة الأصلية الموجودة بمكتبة عاطف افندى بالأستانة، وزاد على ذلك بأنه يدعو من يشاء الى طبعها ونشرها. ولما استيقنت من وجود هذه النسخة أرسلت خطابا الى رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، رغبت اليه أن تعمل اللجنة على نشر هذا الأثر الجليل، فرد علىّ حضرته فى اغسطس سنة ١٩٢٧ بأن اللجنة تضع اقتراحنا موضع البحث، ففرحت بهذا الجواب وجعلته بشرى أذعتها بجريدة المقطم الغراء بين الناس. وهاقد انقضى ستة أعوام كاملة بغير ان يتحقق مارجونا.

ولما كان من أغراض اللجنة الموقرة نشر الكتب القيمة، وليس من شك فى أن تاريخ ابن خلدون بمقدمته الموجودة بالخزانه الزكية هو خير ماينشر من كتب الأوائل فى هذا العصر، فانى أعيد الرجاء على صفحات الرسالة الى هذه اللجنة الموقرة، لتعمل على طبع هذا التاريخ ومقدمته، ويكون ما كتبه الأستاذ عنان تصديرا لهذا التاريخ، وبذلك تكون اللجنة قد أدت للعلم والأدب أجل عمل، ولابن خلدون أجمل ذكرى ؟

محمود أبو ريه

مطالعات فى التصوف الاسلامى

تمهيد — كشف المحجوب — عوارف المعارف

— ١ —

١ — يمتاز العصر الذى نعيش فيه بانه عصر نهضة فكرية تناولت الحياة العامة والخاصة للافراد والجماعات ويمتاز هذا العصر أيضاً بما استحدث فيه الباحثون من مناهج علمية لها قيمتها وأثرها فى كشف الحقيقة التى يقصد اليها كل باحث. على أن هذه النهضة مهما تكن عامة شاملة، وهذه المناهج العلمية الحديثة مهما تكن دقيقة منتجة، الا أننا لا نزال نرى أن فى تاريخ الفكر الاسلامى ناحية خصبة ممتعة طريفة قد أعرض عنها الباحثون من الشرقيين اعراضا هو أقرب مايكون الى الاهمال الشنيع منه الى أى شيء آخر. على حين ترى الباحثين من المستشرقين قد عنوا بهذه الناحية عناية خاصة فائقة. فكشفوا عن خباياها وأظهروا ما اشتملت عليه من فكر عميق وشعر رقيق. وأحسوا بما تثيره فى نفوسهم هذه الآثار من متعة عقلية ولذة شعورية. هذه الناحية التى أهملها الشرقيون وعنى بها المستشرقون هى ناحية التصوف الاسلامى وما أنتج فيه من مؤلفات لها مكانتها الأدبية، وقيمتها الفكرية بين ما أنتج العقل البشرى عامة، والعقل الاسلامى خاصة.

وليس أدعى للأسف ولا أبعث على الحسرة من أنك اذا أردت أن تعرف شيئا عن تاريخ التصوف الاسلامى: نشأته وتطوره، وان تلم الماما كافيا بمن ظهر من متصوفة المسلمين فى عصور الاسلام المختلفة، وما صدر عن هؤلاء المتصوفة، من شعر ونثر واشارات وإيماءات تلتمس هذا كله عند المستشرقين فى لغاتهم الأوربية المختلفة. وتلتمس هذا كله بصفة خاصة عند ماسينيون فى الفرنسية وعند نيكلسون فى الانجليزية. وأنت لاشك واجد عند هذين العالمين ما تطمع فيه من بحث منظم وأسلوب علمى دقيق، وتصوير جميل بديع لهذه الشخصيات الفذة العجيبة التى ظهرت إبان العصور المتعاقبة لتاريخ التصوف الاسلامى. وانك حين تتصفح كتابا من كتب المستشرقين فليس من شك فى أنك ستعجب بمهارتهم الفائقة فى البحث وبمقدرتهم الغريبة على جمع الأخبار ولم شعث الآثار وتحقيقها على ضوء المنهج العلمى الحديث بحيث ينتهون من هذا كله الى الحقيقة الثابتة التى لايأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها. وليس من شك أيضاً فى انك ستقدر مابذل هؤلاء القوم من جهد، وما تحملوا من مشقة وألم فى سبيل اخراج ما أخرجوا من ابحاث منظمة وأسفار قيمة.

وليس أدل على عناية المستشرقين بالحضارة الاسلامية عامة وبالتصوف خاصة من أن أحدهم وهو العالم الكبير والباحث الجليل المسيو لويس ماسينيون قد قضى أعواما طوالا يجوب فيها البلاد الاسلامية المختلفة باحثا عن نصوص صوفية لم يسبق نشرها، وقد وفق فيما قصد اليه توفيقاً عظيما كانت ثمرته هذا الكتاب القيم المسمى «مجموعة نصوص لم يسبق نشرها تتعلق بالتصوف الاسلامى». ناهيك بأن المسيو ماسينيون قد تعرض الى بحث شخصية قوية جداً وغريبة جداً من شخصيات التصوف الاسلامى وأعنى بها شخصية الحلاج. فكانت ثمرة بحثه هذا السفر الضخم حقاً، الخالد حقاً، فى تحليل شخصية الحلاج ونفسيته. والابانة عن مذهبه وعن رأى المدارس الاسلامية المختلفة فيه. وليس أدل على عناية المستشرقين أيضاً بهذه الناحية القيمة الممتعة من انهم قد عمدوا الى ما أنتج المتصوفة من مؤلفات فاوسعوها درسا وتحليلا. وما هى الا أن تناولوها بالترجمة الى لغاتهم وشرحوها وعلقوا عليها. وما هى الا أن طبعوها وأذاعوها فى الناس. وما هى الا أن قرئت هذه المؤلفات وفهمت ونوقشت. وانتهى هذا كله الى أن اختلف المستشرقون حول هذه الكتب فمنهم من تعصب لها ومنهم من تعصب عليها ومنهم من رأى فيها رأيا غير الذى يراه غيره. ومن هنا كثرت المؤلفات الأوربية فى التصوف. على حين انك اذا أردت أن تعثر على كتاب فى العربية يعطيك صورة واضحة جلية لنشأة التصوف وتطوره فى الاسلام فانك لن توفق الى بغيتك. ذلك لأن الشباب المثقف عندنا قد ضاق صدره بكتب التصوف القديمة كما ضاق بغير كتب التصوف من الآثار الاسلامية وغير الاسلامية، فأنت اذا طلبت الى شاب مصرى مثقف أن يطالع كتابا عربيا قديما فى التصوف فمن المؤكد أنه لايكاد يقرأ منه فصلا — استغفر الله — بل أنه لايكاد يقرأ منه صفحة أو صفحتين حتى تضيق نفسه، ويحرج صدره، ويستولى عليه الملل والسأم، فيلقى بالكتاب القاء على أن لا يعود اليه مرة أخرى. ولعل عذره فى ذلك هو ان ماتكلفه قراءته وما تحمله مشقة مطالعته انما هو كتاب مختلط مضطرب لم ترتب أبوابه. ثم هو ضخم طويل ان عرف أوله فقد لايعرف آخره. وأكبر الظن أن شبابنا حين ينظر الى الآثار الاسلامية هذه النظرة التى هى أقرب الى الازدراء منها الى أى شيء آخر. أقول ان شبابنا مسرف على نفسه وعلى الحضارة الاسلامية. مسيء الى نفسه والى الحضارة الاسلامية. ولو قد تجمل

بالصبر على مايقرأ وتضرع بالثبات امام مايقرأ . واستعان بالفهم المستقيم لما يقرأ . لانتهى منه الى ما يشبع رغبته ويرضى حاجته العقلية والشعورية . واذن فما أجدر شبابنا المثقف أن يعمد الى هذه النواحى المهملة من تراثنا المجيد فيتناولها بحثا وتحليلا ، وتفسيرا وتأويلا، بحيث يخضعها لمناهج البحث الحديث فهى كفيلة بأن تكشف له عن وجه الحق فيما يقرأ ، وهى كفيلة بأن تشعره بما فى قراءته من لذة قوية ومتاع خصب .

وأحب أن أحدثك فى سلسلة من الفصول عن التصوف الاسلامى . فأتناول فى بعضها الحديث عن بعض المؤلفات الصوفية التى أودعها أصحابها مسائل التصوف ونظرياته . وأتناول فى بعضها الآخر تحليل بعض الشخصيات القوية التى ظهرت فى تاريخ التصوف الاسلامى فكان لها أكبر خطر وأعظم أثر . وبهذا أكون قد قمت بجزء من الواجب على كل شاب مصرى مثقف أن يقوم به نحو هذا التراث الاسلامى المجيد . وأحب بعد هذا كله أن أتناول فى هذا الفصل كتابين عنى بهما المستشرقون فترجموهما الى لغاتهم ، وذلك لأن هذين الكتابين يعدان من أهم الكتب التى تظهرنا على المسائل الصوفية ، والاشارات الباطنية ، وما ينسب الى المتصوفة من أقوال فى هذه الاشارات وهذه المسائل . هذان الكتابان أحدهما « كشف المحجوب » للهجويرى . والثانى « عوارف المعارف » للسهروردى

٢ ــ أما مؤلف « كشف المحجوب » فكان معاصرا للقشيرى الصوفى الفارسى الذى عاش بنيسابور وتوفى عام ٤٦٥ ﻫ (١٠٧٢م) والذى يعرف بمؤلفه المشهور «الرسالة القشيرية» . ولم تكن لكشف المحجوب هذه الروح النقدية المؤسسة على قواعد علمية راسخة ، فهو كتاب من هذه الكتب التى يمتاز مؤلفوها بالقدرة على جمع المسائل الصوفية وأخبار المتصوفة ، ووضعها فى أقسام وأبواب . هذا فضلا عن أن هذا الكتاب قلما يذكر فيه شىء عن تواريخ الأشخاص الذين يتحدث عنهم . ولعل أكثر مايذكر لك عن الشخص الذى يعرض له قولا أو قولين من هذه الاقوال التى تنسب اليه . وانه ليكتفى بهذا القول أو بهذين القولين فيعمد اليهما بالشرح والتفسير ولكنه شرح غامض وتفسير مبهم . ومن الحق كل الحق ألا يثق الباحث المدقق ثقة تامة بكل ماينسب الى المتصوفة من أقوال وماينسب حولهم من قصص كتلك التى يذكرها الهجويرى فى كتابه . وانما هو مضطر على العكس الى ان يخضع هذه الاخبار وهذه القصص وهذه الاقوال الى البحث العلمى الصحيح فينكر بعضها حين يلزم الانكار ويشك فى بعضها الاخر حين يجب الشك . ويرجح طائفة منها اذا كانت هناك حاجة الى الترجيح ويؤكد طائفة أخرى حين لايجد الشك سبيلا الى ما يؤكد بحيث ينتهى من هذا كله الى الحقيقة الثابتة الراسخة التى لا تقبل شكا ولا تحتمل جدلا . واذا كنا نلمس فى تضاعيف المؤلفات الصوفية امورا من شأنها ان تحملنا على التفكير وتدعونا إلى الشك فلابد لنا من أن نقف من هذه المؤلفات موقفا ان لم يكن موقف المتشكك المرتاب ، فلا أقل من أن يكون موقف المحقق المدقق الذى لايبغى من وراء تحقيقه وتدقيقه الا وجه الحقيقة خالصا صافيا لا تشوبه شائبة . ولعل الهجويرى نفسه قد قدم لنا مثلا لما من شأنه أن يحملنا على الشك فى صحة بعض ما يذكر فى كتب التصوف القديمة . فهو حين يتحدث عن الخلوىّ يقول : « هو مترجم الاولياء المعروف ولكى يفسر المذاهب الصوفية الاساسية فقد نسب الى شخصيات عديدة قصصا الفها هو . . . . » . ومهما يكن من شىء فتلك مسألة نتركها الآن لنعرض الى تلخيص الكتاب الذى نحن بصدده .

يرجع الهجويرى بداية التصوف الى عهد النبى صلى الله عليه وسلم، كما يذكر تحت اسم (أهل الصفا) فريقا من الصحابة الذين وقفوا حياتهم على التضحية وكانت معيشتهم اقرب الى الاعراض عن الدنيا والزهد فيها ، منها إلى الأقبال عليها والميل اليها . ولعل أشهر هؤلاء الصحابة رجلان: أحدهما بلال الحبشى والآخر سلمان الفارسى .

أما فى الجيل الأول من التابعين فاقوى الشخصيات التى ظهرت وذكرها الهجويرى شخصية الحسن البصرى . وليس ثمة شك فيما لهذه الشخصية من أثر قوى وخطر عظيم فى تاريخ الحضارة الاسلامية . فاسم الحسن البصرى يذكر على رأس دراسات اسلامية متعددة . فهو يذكر فى دراسة القرآن والنحو وعلم الكلام وغير ذلك من فروع الثقافة الاسلامية المتنوعة .

ويذكر مؤلف « كشف المحجوب » بعد جيل الحسن البصرى أربعة وستين صوفيا أخذ يعددهم حتى دنا من العصر الذى كان يعيش فيه. وانك تراه يذكر فيمن يذكر من هؤلاء المتصوفه أبا حنيفة وابن حنبل وداود الطائى . أما الصوفيون الحقيقيون ، وبعبارة أدق المتخصصون ـ فمن بين الذين يذكرهم ذوالنون المصرى وابن أدهم والبسطامى. وهذه الأسماء الثلاثة كثيرا مايتردد ذكرها فى المؤلفات الصوفية نظرا لما لها من قيمة ولما لعبت من أدوار فى تاريخ التصوف الاسلامى . ويذكر الهجويرى بعد هؤلاء عشرة من المتصوفة المعاصرين له أشهرهم القشيرى . ثم فريقا كان لايزال حيا وقتئذ فى الأنحاء المختلفة لبلاد الفرس .

ويأتى بعد هذا كله فصل طويل عن احدى عشرة طائفة صوفية وقد جعل لكل طائفة مقالا خاصا تناول فيه ناحية معينة من مذهبها . ويرى السواد الأعظم أن الخلاف الذى شب بين هذه

الطوائف لم يكن ذا أهمية وانه ليس الا وسيلة يستعان بها على تفسير المذاهب المختلفة ، فالطائفة الاولى مثلا تذكر الرضى من بين الأحوال بدلا من أن تجعله بين المقامات . ويعقب الهجويري على هذا بمقال عن الرضى . والطائفة الأخيرة تظهرنا على رأى المتصوفة فى مسألة فلسفية نفسية ذات خطر . ذلك أنها كانت تؤمن بالتناسخ . ومن هنا ترى مؤلف « كشف المحجوب » يذيل كلامه عن هذه الطائفة بمقال عن الروح . وفوق هذا كله فان المؤلف قد بسط مذهب المتصوفة فى صورة أخرى موضوعة فى احد عشر فصلا مثلها فى هذا العدد كمثل الفصول التى سبقتها . وانه ليجعل عنوان كل فصل من هذه الفصول هكذا : « كشف المحجوب الأول والثانى والثالث . . . الى الحادى عشر » والمحجوبات هنا تقابل المسائل الجوهرية للدين الاسلامى (وحدانية الله - الايمان - الوضوء الصلاة . . . الخ) فكل مسألة من تلك لها تفسير صوفى . أو هى بعبارة أخرى تقابل فصلا من فصول التصوف . وانك لتلاحظ فى هذا القسم حرية التفسير والتأويل التى اصطنعها المتصوفة فى فهمهم للدين . فأنت ترى مثلا فى صفحة (٣٠١) من الترجمة الانجليزية التى وضعها الاستاذ نيكلسون وطبعتها ونشرتها لجنة احياء ذكرى جب: « الصلاة عبارة عن تعبير يجد فيه المريدون الطريق الموصل لله من البداية الى النهاية . وفيه تنكشف لهم المقامات . والطهارة للمريدين هى التوبة . وأنت حين تولى وجهك نحو القبلة معناه انك تخضع نفسك للمدبر الروحى . وأنت حين تصلى واقفا معناه انك تذل نفسك . وتقابل تلاوة القرآن التأمل الباطنى . واطراق الرأس هو التواضع . والركوع والسجود هما معرفة الانسان لنفسه والتسليم هو الانفصال عن الدنيا . ويحل محل الاعتراف بالايمان الأنس بالله » وآية ذلك هى أن كل حركة عملية يمكن تأويلها تأويلا صوفيا وان كل رياضة جسمية تقابلها عاطفة روحية .

* * *

٣ - ولنترك الآن كشف المحجوب لنقف وقفة قصيرة عند الكتاب الثانى الذى أريد أن أحدثك عنه وأعنى به « عوارف المعارف » ويمتاز هذا الكتاب بأنه أكثر تقسيما وأوفر تنظيما من سابقه . ثم هو أقدر على اظهارنا على منشأ العلوم الصوفية والابانة عن آداب المتصوفة ومذاهبهم وأخبارهم وأقوالهم بحيث يمكن اعتباره كتاباً تعليميا بكل معانى الكلمة . وليس أدل على قيمة هذا الكتاب من أن ويلبرفورس كلارك قد ترجمه . ومن أن بعض المستشرقين ينظر اليه كانه تحفة أدبية لها قيمتها بين الاسفار العربية الكلاسيكية التى تسودها روح المنطق ويسيطر عليها أسلوب البحث والاستقصاء . ومن أن البارون كارا دى فو قد تكلم عن هذا الكتاب فى مؤلفه عن الغزالى ثم أعاد الحديث عنه مرة أخرى فى كتابه «مفكرى الاسلام» . فهذا كله يظهرك على ما للكتاب من خطر وما فيه من غناء .

أما مؤلف الكتاب فهو شهاب الدين السهروردى أحد أعقاب أبى بكر رضى الله عنه . كان تلميذا لعمه أبى النجيب وللصوفى المعروف عبد القادر الجيلى . وكان شيخا لمشايخ بغداد . التف حوله عدد ضخم من المتصوفة والزهاد . وله غير مؤلفه الذى نحن بصدده طائفة لا بأس بها من الأشعار . مات فى بغداد سنة ٦٣٢ هـ .

وأبو النجيب عم المؤلف الذى أشرنا اليه آنفا صوفى أيضا . أورد شهاب الدين ذكره كثيرا فى كتابه فهو يبدأ كل أبواب هذا الكتاب أو جلها بهذه العبارة : « حدثنا شيخنا شيخ الاسلام » يعنى عمه . وقد كتب عنه ياقوت فى معجمه مقالا بديعا اعتبره فيه أذكى أبناء سهرورد . سافر فى شبابه إلى بغداد حيث درس الشريعة والفقه . ثم الى أصفهان . وكان يعمل كسقاء ولم يكن يعيش إلا من عرق جبينه . وبعد أسفاره هذه عاد إلى بغداد حيث كان يلقى تلاميذه الذين درسوا عليه الشريعة وحيث تولى رياسة النظامية . ثم قصد بعد هذا الى دمشق سنة ٥٥٨ هـ حيث أولاه نور الدين الزنجانى شرفا كبيرا . وهناك أسس طائفة من الصوفية . ويعقب ياقوت على كلامه عن أبى النجيب بقوله : أن ابن أخيه مؤلف عوارف المعارف كان من أبرز شخصيات عصره لما له من مواهب . ولما كان عليه من صلاح وتقوى . اجله الخليفة الناصر وخلع عليه لقب شيخ مشايخ بغداد . ولهذا الخليفة ألف شهاب الدين السهروردى كتابه عوارف المعارف.

ويقول عنه ابن خلكان فى وفيات الأعيان أنه كان فقيها شافعى المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية فى المجاهدة والخلوة وصحب عمه ابا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبى صالح الجيلى . . . . ولد بسهرورد فى أواخر رجب سنة ٥٣٩ هـ وتوفى فى المحرم سنة ٦٣٢ هـ .

هذه ترجمة موجزة لحياة مؤلف عوارف المعارف . أما الكتاب نفسه فقد بلغ من الخصوبة والطول بحيث أنه وضع فى أكثر من ستين بابا . ولابد لنا من وقفات عند أهم هذه الأبواب التى بسط فيها المؤلف منشأ علوم الصوفية ، وآدابهم وأخلاقهم واشاراتهم وأحوالهم ومقاماتهم . فكل أولئك مسائل خليقة بالبحث ، جديرة بالدرس . وهذا ما أرجو أن أعرض له منذ الفصل التالى بحيث أكون لديك صورة صادقة لهذا الكتاب تمكنك من أن تتعرف مكانته وتقدر قيمته وتتبين ما له من خطر وما فيه من غناء .

محمد مصطفى حلمى
ماجستير فى الآداب

الزينـــة

عند قدماء المصريين

أناقة الرجال — الزى والحلاقة والحلى — زبرجة النساء — الثياب — الاصباغ — العطور

للأستاذ حسن صبحى

« تلبس ثيابا من الكتان الناعم
وتركب الخيل وتحمل لها السوط الذهبي فى يدك
لك سرج جديد شغلته ايدى الشوام
وتجرى أمامك العبيد يصدعون بما يؤمرون
يدهن جسمك كبير معطريك بطيب الكيمى
وفمك ملىء بالنبيذ والخمير . . . . .
. . . . الخ »

« من قصيدة تحية المعلم من الشعر المصرى القديم »

يالها من أناقة وفخامة ! ثياب من كتان ناعم ! وسوط الركوب موشى بالذهب ! وسرج جديد من صنع أهل الشام ! وعبيد سياس يجرون امام السيد المعلم يفسحون له الطريق ويصدعون لما يأمرهم به ! وعطور وطيب يدهن به جسمه !

وأية أناقة تعدل هذه الأناقة ! وأين هاتيك الأناقة الرائعة ، والفخامة فى الثياب وفى المركب وفى الخصاصية مما نحن عليه الآن ، ومما نظنه منتهى ماوصلت اليه مدنية القرن العشرين بعد الميلاد !

لسنا نحن الذين نصف ازياء المصريين فنتهم بالتحيز لأجدادنا ، بل هم المصريون أنفسهم يتحدثون عن أزيائهم فى هذا الشعر القديم ، ولا يتركون لمتشكك فرصة ما فى ان يظن بهم غير ما يصفون ، فيخلفون فى قبورهم الثياب الكتانية البيضاء الناعمة ، والحلى الذهبية المطعمة بالجواهر والاحجار ، ويخلفون القفازات . والصنادل الجلدية الفاخرة ، ويخلفون السروج المزركشة بالذهب والفضة ، والسياط المنقوشة الموشاة بالذهب والفضة وكرائم الاحجار ، وآنية مرمرية وأخرى رخامية تحوى عطوراً فيها السوائل وفيها الصلب وفيها ما بينهما من معاجين ومقشطات ، ويخلفون غير هذا وذاك صورا على الجدران تمثلهم فى هذه الثياب الرقيقة ، وهاتيك الحلى الثمينة ، وتلك الأناقة الرشيقة ، وتمثلهم وهم يدهنون ، وهم يعطرون ، وهم يتزينون ! . . .

أفنستطيع بعد هذا ان ننكر على القوم ما كان لهم من « تواليت » !؟ وتواليت دى لوكس ايضا ؟ !

اناقة الرجال :

نظر المصريون الى الرجل من نواحى الرجولة التى تبعده كل البعد عن المرأة ونواحى الأنوثة فيها ؛ فالرجل يجب أن تبدو منه عضلاته دليلا على القوة والبأس ، الم يخلق للعمل والحرب ؟ إذن : فليترك صدره ليبرز ماعليه من الفورسبس (عضلات الصدر) أمام الأعين ، دليلا على قوة الرجل أو هزاله ، وليخلى عن ذراعيه من الثياب ليظهر مافيها : بايسبس وترايسبس (عضلات الذراعين فوق الرسغ والكتف) فيميز الناس فيه القدرة والعجز ، ولتحلى تلك الصدور البارزة القوية بالعقود والمدليات وتلك الاذرع والمعاصم بأساور من ذهب أو مايشبه الذهب ، كى تستلفت العين الى مافيها من شدة وبأس وكمال فى النمو ، هى ما يقترن بلفظ « الجمال » فى الرجل ، وما يميز جمال الرجل عن جمال المرأة .

هذا الجمال فى النمو وفى الشكل توجده الطبيعة فى الأصل ، ولكنها تكل للرجل تعهده والعناية به ، فهو لابد مستمر فى القيام على اظهاره فى أجمل صورة له ، وهل يتم له هذا الاظهار الا بمداومة النظافة والرياضة والعناية ؟ والنظافة لم تكن بعيدة المنال على المصريين فقد كان النيل دائما الأب الرحيم ، يغتسلون فيه ، وفى ترعه ، وفى مياهه يجرونها فى قنوات الى بيوتهم ، ونقرأ فى قصصهم عن احواض الاستحمام التى كانت تبنى فى القصور ، كما نقرأ عن ضرورة الاغتسال قبل الصلاة ، وضرورتها لرفع الحدث الأكبر ، أى انها جعلت ركنا من أركان دينهم ، كما ينص الأسلام على ضرورة الوضوء والاغتسال قبل الصلاة وبعد الحدثين

واذا عرفت ان المصرى القديم لم يكن يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يعمل الا بعد ان يؤدى صلاته لألهه ، وعرفت ان الدين كان فى دم المصرى القديم الى حد ان أفقر الناس كان يبنى دار دنياه من طين ، بينما يبتنى لنفسه فى حياته قبراً من أغلى الاحجار التى يستطيع شراءها ، ويسمى هذا القبر : (البيت الأبدى) بينما يدعو مسكنه الدنيوى (بيت الاختبار) ؛ اذا عرفت هذا كله ادركت مبلغ تدخل الدين فى كل شىء ، ومكان النظافة الشخصية من نفس كل مصرى تبعا لعقيدته .

الحلاقة

والنظافة عند المصرى القديم ليست الاغتسال بالماء فقط ، اذ نرى من صورهم الكثيرة جدا ، انهم كانوا يقصون شعور رؤوسهم ، ويقصرونها لتميز رؤوسهم عن رؤوس النساء ، ثم كانوا حليقى الوجوه ، لا لحى ولا شوارب ، ولم يكونوا يكتفون بقصها أو

قطعها، ولكنهم كانوا يحلقونها بالأمواس لتكون وجوههم نظيفة خالية المسام، تميزهم عن غيرهم من الشعوب التى كانت ترخى ذقونها وشواربها كشعب فلسطين وشعب ليبيا وغير هؤلاء ممن ظهرت صورهم على الآثار بلحى وشوارب سوداء طويلة.

وقد يعجب القارىء اذ يعلم ان المصريين عرفوا أمواس الحلاقة منذ خمسة آلاف عام، لكنها حقيقة خلفوا آثارها لنا، اذ يحوى المتحف المصرى طائفة كبيرة من هذه الأمواس مصنوعة صناعة متقنة من شظايا الجرانيت والاردواز والبازلت الصلبة التى تتحمل الترقيق والتشحيذ، وتقاوم استمرار استعمالها فى الحلاقة.

وإذ نمر بالاغتسال وبالحلاقة بعد الزى، وهى أوليات التواليت، فاننا نصل الى أقصى مراتب التواليت، وهى ماسميته من قبل «تواليت دى لوكس».

التواليت العالى

لم يكن للرجل العادى نصيب فى التواليت العالى، الذى لم يكن يعرفه غير أفراد الطبقة الممتازة. من الملوك والكهنة والوزراء والكتاب والأعيان.

هؤلاء كانوا يستمدون من ثروتهم وسلطانهم ما يستطيعون أن يقتنوا به العطور والأدهان يطلون بها أجسامهم كى تطيب رائحتها وينعم جلدها وتبرق بشرتها، فيبدو كل ما فيها من جمال الرجولة وأناقتها. وكانوا يلبسون فى أيديهم القفازات، لا يتقون بها البرد، وصدورهم وظهورهم عارية، ولكن ليقبضوا بها على الأقواس ويشدونها حين يطلقون منها السهام، ويكملون بها زينتهم وأناقتهم. ثم يضعون فى أقدامهم صنادل أنيقة من الجلد الموشى بالخيوط الذهبية، مبالغة فى الأناقة والرفاهية.

هذه صورة حقيقية للرجل المصرى من الطبقة الممتازة:

رجل كامل النمو فى جميع أجزاء جسمه، لايستر منه غير عورته، بسروال قصير من الوسط الى الركبتين مصنوع من الكتان الابيض المثنى (بليسيه)، يلبس فوق صدره عقودا وخرزا وفى معصميه أساور من ذهب، حليق الوجه منسق شعر الرأس قصيره، لايضع على رأسه شيئا، يلبس قفازا من الجلد وصندلا من الجلد، ويمسك بيده سوطا من الجلد موشى بالذهب يسوق به فرسا يمتطيه، وتحوطه مظاهر الفخامة والاناقة والرجولة!

هل منكم من يعطينى صورة أكمل لأناقة الرجولة من هذه الصورة بعد مضى خمسة آلاف عام على هذه الأناقة وعلى هذا التواليت؟!

زبرجة النساء

لم تكن المرأة المصرية القديمة محجبة، ولم تكن للرجل مجرد متعة، اذ كانت تشاطره العمل فى الملك، وفى الكهانة، وفى الحقل، وتقوم بنصيبها فى البيت أيضا. تربى أطفالها، وتجهز بيتها، وتطهى طعام أسرتها، وتحيك ثياب زوجها وصغارها ونفسها ....

وكل هذا يضعنا وضعا صحيحا أمام حالة المرأة المصرية كى نفهم على أى أساس كانت تقوم المرأة بعمل تواليتها فى مصر.

كانت المصرية (ربة بيت) فثوبها يجب أن يكون طويلا يستر ذراعيها وصدرها وكعبها، لكنه كان أنيقا ليجارى أناقة رجلها، فهو اذن ثوب يجمع بين الحشمة والأناقة، يستر انوثتها المغرية، ويبرز انوثتها الطبيعية غير المثيرة. ثوب طويل ضيق ذو ثنيات (بليسيه) يكون فى معظم الأحوال أبيض ناصعا تتجلى فيه نظافتها وأناقتها، يسدل عليه فى بعض الأحيان ثوب شبكى من خيوط ذهبية أو فضية، ويتدلى فوق هذا الثوب شعرها الأسود الفحمى الطويل، مصفوفا منسقا فى ضفائر ملتوية، هى آية فى الاعجاز والأناقة اذا قيست بتنسيق الشعر فى العصر الحاضر.

ولم يكن السمن من سمات الجمال المصرى، فقد حرص المصريون القدماء على تصوير نسائهن فى نحافة ورشاقة كأمثلة ونماذج للجمال النسوى، وامتدحوا نحافـــة السيقان فى اشعارهم وغزلهم، اذ يقول الملك خوفو لكبير أمنائه حين أراد النزهة فى قارب:

«هيا احضر عشرين فتاة نحيفات السيقان والاذرع، ناهدات الصدور، لم يخلق مثلهن من قبل» (من قصة الملك خوفو والسحرة: قصص البردى).

العطور

لم يكن نصيب هذا الجسم المستور الجمال، من العناية والتواليت بأقل من نصيب جسم الرجل، فاننا نقرأ فى النصوص: ان المرأة كانت تطلى جسمها بالعطور والأدهان لتصقله وتجعله براقا ناعما تحت ثيابها، ونرى فى الصور فوق شعر المرأة قطعة من الدهن العطرى الابيض، ينحل دهنها فوق الشعر شيئا فشيئا كى يحفظ له طراوته ولمعانه، وفى وصف المرأة فى نصوص المصريين كثير يدل على طيب اريج ثيابها وجسمها

الاصباغ

لم يكن بياض البشرة فى مصر القديمة يعتبر جمالا ، ذلك أن شمس مصر اللافحة تخرج ذلك اللون الخمرى البديع ، الذى يجعل من بشرة المصريات خلابة وظرفا لا تصل اليه البشرات الاوربية البيضاء الناصعة ، اذن فقد كانت النسوة المبيضات اللون تسعى الى الوصول للمثل الأعلى فى جمال البشرة ، فيعمدن الى الحناء وهى من النبات المصرى الاصيل فيصبغن بها أجسامهن ووجوههن لتصبح لهن تلك البشرة النحاسية الخمرية الظريفة .

وهذا ما يطابق تمام المطابقة الغرض الذى استعملت فيــــه « البودرة » الاوربية . اليس منشأ البودرة هو الحصول على بياض يقترب من بياض المثل الأعلى للجمال الاوربى ؟

والأحمر ؟ فيم تحتـاجه المرأة الخمرية اللون ؟ المحمرة البشرة بطبيعتها ؟ ثم أى جمال تشاهده الآن فى تلك الشفاه الحمراء فى لون (الطماطم) بين خدود خمرية وشعر أسـود فى لون الفحم ؟ إنهـا تبعث فى العين تنافراً قل أن يرضى أحدا .

لهذا لم يعرفه المصريون فى زينتهم مع معرفتهم للونه ومسحوقه فى تلوين الجدران البيضاء ، وفى التصوير على الفخار ، وفى الـكتابة على البردى . . . .

لـكنهم عرفوا (الـكحل) ووضعوه فى عيونهم ، وجعلوا منه الوانا متباينـة بين الاسود الفحمى والأخضر القـاتم ، والازرق الداكن ، والعسـلى الغميق ، وكلها لتطابق الوان الشعر والعيون والاهـداب ، وتتمشى مع تناسق ألوان هذه الاجزاء فى الجسم .

* * *

واليك صورة جميلة للمرأة المصرية القديمة :

« امرأة رشيقة فى ثوب رقيق ناعم من الـكتان ذى ثنيات طويلة يستر كل جسمها ويدل على مواضع الجمال الطبيعى فيه ، ذات وجه خمرى يبدو فوق هذا الثوب الانيق بجماله الطبيعى ، خفيفـة حمرة الشفاه ، بيضاء الاسنان ، سـوداء العينين مكحولتهما بكحل يطابق لونه لون حبة عينها ، مرسلة الشعر الاسود فى ضفائر على كتفيها ، ينتشر اريجه وطيبه وعطوره ، وتضع فى قدميها صندلا رقيقا يزيدها رشاقة وأناقة . .

هذه هى مثل الاناقة المصرية ، والتواليت المصرى منذ خمسة الاف عام ! . . ؟

حى بن يقظان

لمحة عن النظريات والمذاهب الفلسفية التى توحيها مطالعة الكتاب

لـكتاب حى بن يقظان مقام جليل فى تاريخ الفلسفة العربية ، سجل لصاحبه شهرة واسعة فى القرون الماضية لاسيما فى بدء نهضة الافرنج . ولانزال نذكر الى الآن مؤلفه ابن الطفيل كلما طالعنا كتاب « روبنسن كروزو » لديفو الانجليزى ، فنحن وان كنا بغير حاجة فى هذا العصر الى مافى هـذه القصة من نظريات عقلية أو مذاهب عملية نرتب عليها أعمالنا فى الحياة ، لانزال نحفظ لمؤلفها فضل الاسبقية فى مثل هذا الفن القصصى الفلسفى ، ونريد أن نذكرها كلما اتينا على ذكر ديفو وبطل قصته روبنسن كروزو . ولست أريد من ذلك ان قصته روبنسن هى ككتاب حى بن يقظان قلباً وقالباً ولـكن أريد ان اشير الى شبه فى الفكرة ومجانسة فى الفن القصصى .

ولننتقل بعد هذه الـكلمة الى ما نحن بصدده من استخراج النظريات والمذاهب الفلسفية من قصة حى بن يقظان لنتبين قيمة هذا التراث الفلسفى الخيالى فى أدبنا العربى

لانريد ان نقول ـ قبل أن نأتى على تلخيص القصة ـ ان ابن الطفيل قد ضمنها زبدة التعاليم الفلسفية العربية ، والمذاهب العملية وصاغها فى قالب خيالى جذاب تستشف من ورائه شخصية الفيلسوف الوادعة ، وفكرته الخاصة التى تنهتك سراعاً للخبير ، فكان بذلك سابقاً لديفو واضرابه من الافرنج القصصيين :

فأول مايستلفت نظرك أيها القارىء الـكريم من هذا الـكتاب هو عنوانه الرمزى الغريب : حى بن يقظان . فمن هو هذا « حى » ؟ وابن من ؟ ابن يقظان . . . هذا الاسم رمزى فى مدلوله وهـو فى عرفهم ابن من لاينام أى الله عز وجل

وتفتح الـكتاب فاذا هناك مقدمة وجيزة فى نقد الفلاسفة الأسلاميين ، ونظرة سريعة فى الحـكمة المشرقية سيشرحها لك منصلا عند الحديث على بطله حى

كل الـكتاب نظريات وثبت للمذاهب الفلسفية ، فأول ماتفاجا به أيها القارىء هى هذه النظرية ، نظرية التوليد من غير أم واب ، فيدهشك هذا القول من فيلسوف إسلامى ويغضبك خصوصا اذا كنت من اصحاب الايمان الحار ، ويأخذ بك ابن الطفيل فى منعرج هذا المذهب الوعر الذى يصعب علينا حله واتباعه ، ويستطرد فى كيفية تخمر الطينة تحت اشعة الشمس وعلوق الروح بها ، فيلذك الاستطراد ولا يعجبك الاعتقاد ، والحق يقال ان هـذا المذهب

الطبيعي الذي يبني مبدأ الخلق والتكوين على الصدف والتصادف والذي يعتنقه الكثيرون في عصرنا - وما اكثر المذاهب والآراء في هذا العصر - غير مبني على أساس متين ولا براهين جلية بحيث تقتلع من صدرك الايمان بصحته. فالمذاهب الفلسفية، الاقوال فيها كثيرة ومختلفة، وليس هناك دستور واحد في البحث تتمشى عليه، وحقيقة واحدة تتفق عليها. ففي المسألة الواحدة تجد قولين أو ثلاثة أو اربعة، والانسان عندما يكون متردداً في مسألة ما، تكثر تعاليله وحدسياته. فابن الطفيل مثلا لا يجزم بصحة هذا المبدأ الطبيعي كما هي عادته، فيأتيك بقول آخر أعم وأشهر، ولكنه ليس بنظرية بل تعليل ثانوي لكيفية وجود حي بن يقظان في جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء، فقد اختلفوا في وجود هذا الشخص في هذه الجزيرة المنقطعة عن السكان المقفرة من بني الانسان. فيقولون ان حياً كان ابناً غير شرعي وان أمه أخت ملك قد وضعته في صندوق وقذفت به في اليم، فقاده المجرى المائي الى هذه الجزيرة «الاستوائية» وهذا القول اقرب واخف وطأة على القارىء من الأول، اذ يعرف ان موسى أيضاً قد قذف به في اليم، ولديه على ذلك نص وهو القرآن

قد فرغنا من استخراج هذه النظرية وسللناها من طيات هذا السفر الجليل، فاتبعني أيها القارىء الكريم لنستطلع بعد ذلك خبر ما آلت اليه حال هذا الطفل البائس الذي سيكون له فيما بعد شأن يذكر.

رمت به الأمواج الى شاطىء جزيرة تحت خط الاستواء، وكم يكون جزعك على هذا الطفل عند ما تعلم ان هذه الجزيرة خالية من السكان. ترى من يغذي هذا الطفل، ومن يشفق عليه ويشمله بحنانه، اذ لا انسان يعطف عليه ويحسن رعايته ويوفر له أسباب الحياة؛ ولكن كم يكون فرحك عظيما عند ما ترى أن ظبية من بني الحيوان قد رئمت به، ووجدت فيه تسلية وعوضاً عن ابنها المفقود، فغدت تغذيه بلبانها وتشمله بحنانها، حتى درج وأصبح قادراً على المشي والعدو مع أمه في البرية، وما ان صار على رأس أسبوع من عمره أي سبع سنين، حتى صار يرافق أمه في غزواتها، يناشدها بأنغامها وتناشده، فاذا سمع تغريدة عندليب حاول تقليده، واذا سمع فحيح أفعى أو زئير أسد لم يحاول الابتعاد ولم يوجس خيفة، وتكررت هذه الأصوات على سمعه فوعاها، وغدا يرددها فيجيدها. وهنا أيها القارىء الكريم تعرض لنا نظرية غامضة ولكنها جميلة ومشوقة، فلنتئد في درسها وتحليلها قليلا. النظرية هي نظرية النطق والكلام. أخلق الانسان متكلما لغة أجاد فهمها منذ البدء أم علمه الله اياها؟ واذا كان ذلك فلماذا لم تتفق البشر عليها؟ وما تعليل كثرة اللغات واللهجات التي نسمعها وما هو علة هذا الاختلاف؟

كل ذلك - أظن - جدير باسترعاء خاطرك وانتباهك، وهو يوقظ في نفسك حب الاطلاع والتعليل، وتريد أن تفكر وان تجد تحليلا فلا تجد، فيؤول بك التفكير الى حدس بحدس. وتخمين بتخمين لا طائل تحتهما ولا جدوى. فابن الطفيل لا يبدي لنا الا قولا واحدا في كيفية نشوء اللغة عند الانسان وهو ليس من أرباب الوحي والالهام الذين يقولون ان الله أوحى الى الانسان أن يتكلم فتكلم، وهو ليس من الذين يقولون ان الله خلق الكلام وخلق في الانسان المقدرة والقوة على نطقه. كلا ليس ابن الطفيل في شيء من هذا، وهو على مذهب البعض من المحدثين في القرن التاسع عشر؛ فهؤلاء يعللون نشوء اللغة أي النطق بأن الانسان في طوره الهمجي طور الغريزة الحيواني يتلقى أصوات الحيوان ويقلدها في جرسها ونغمتها، ويضعون لذلك مقاطع طبيعية دارت على ألسنة البشر أجمع في طور وحشيتهم، توجد في جميع اللغات الحية وهي إد، آر، آد... وما أشبه ذلك على أن الاختلاف الذي نراه ناتج عن سنن التباعد والتقارب في أخلاق البشر وأميالهم الطبيعية.

فانت ترى ان ابن الطفيل من هذا الرأي وان «حياً» قلد الحيوانات في أصواتها ولم يجد التكلم في بدء أمره بدليل ان ابن الطفيل يتيح لبطله حي مصادقة اسال فيعلمه الكلام وأمور الدين. فحياة حي هي اذن نفس حياة البشر في طور وحشيتهم وهمجيتهم. ولكن ابن الطفيل لا يقف عند هذا الحد، ولا يريد أن يسرح بطله مع الحيوانات بل يرقى به الى مستوى فكري سام تقصر عنه المدارك، ويريه أشياء لم تقع على سمع أحد «ولا خطرت على قلب بشر».

فانه بعد أن يعلمه الأصوات يريد أن يعلمه الطب كما تعلمه كلية الطب في بيروت لتلامذتها، وان يطلعه على علم التشريح وما فيه من سر دفين. وماتت الظبية أمه، وقعد للبكاء عليها ولزم الحزن أياما يناديها فلا تعي ولا تجيب، ويندبها فلا تأبه لتحرقه وبكائه، وأراد أن يعرف موطن الآفة في جسد أمه محاولا انقاذها مما هي فيه، وبطريق النظر والاستدلال يفتح جوفها ويتوصل الى القلب المركز الرئيسي لجميع الأعضاء، ومنه الى الدماغ فلم يجد بها آفة، حتى اذا ما انتهى من البحث والاستقصاء اتى على علم التشريح بكامله، وتحصل له من ذلك: ان ما يحرك الجسد انما هو بخار يتولد في التجويفات القلبية فيصعد منها الى الدماغ، وهذا بدوره يحرك الأعضاء. وهذا ما قال به ديكارت معبراً عن هذا البخار بالأرواح الحيوانية Esprits animaux.

قد يدهشك مثل هذا البحث المنظم الذي يقوده حي بن يقظان، وهذا الاستدلال الثاقب، ويضؤل في نفسك شخص ابن الطفيل

القصصي ليتجسم لك في شخص حي الطبيب الحاذق والمشرح اللبق ؛ والحق يقال أن ابن الطفيل بعد أن يرتفع بخياله يكبو به جواد هذا الخيال ليحطه الى الارض . لذلك كان الفيلسوف الطبيب ، ولم يكن الفنان القصصي بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . فمن الغريب أن يكون حي قد استكشف مثل هذه النظريات والتطبيقات العملية في مثل هذه المدة الوجيزة ، فاننا نرى فكراً سامياً يتوصل بمحض فكره الى الحقيقة ، لا فكراً وحشياً غريزياً يليق بمثل حي ؛ ولكن هي قصة أقرب الى « الاوتوبيا » منها الى الحقيقة الملموسة . ولا نجزم بأنها نظرية ، ولا نريد أن نناقشها بل نترك ابن الطفيل وتلميذه يعلمه ما يشاء وكيف يشاء ، على أننا نستشف من خلال البحث عن كيفية تعلم حي بن يقظان على نظرية النشوء والارتقاء في العناصر الطبيعية وفي مدارك البشر ، وكيف أنها تنتقل من الملموس الى المحسوس الى المعقول . وكيف أن الحواس تتصل بالاشياء الخارجية فتؤثر هذه فيها وتنفعل عنها فتحولها (أي الحواس) الى دائرة التفكير والتفهم فتصوغ ما أحست بقالب السبب والقانون .

ويفقد حي أمه ويخرج الى معترك الحياة وحيداً طريداً . فكل شيء في قطر وجوده يستلفت نظره ويسترعي انتباهه ، فهو كآلة واعية — اذا كانت آلة تعي — وضعت في مكان ما تلتقط كل ما اوحي لها من حيث القي أو أوحي . فتسجل حركات الاشياء وتنفعل عنها ، وهل الانسان — كما عرفه بعض علماء النفس — الا مجموعة من المؤثرات الداخلية والخارجية تجمعت فشكلت هذه النفس التي تعي وهذه النفس التي تفهم وتتذكر ؟

ويستكشف « حي » النظريات ويستدل بمحض فكره السامي وثاقب ذهنه على وجود « واجب الوجود » وهذه النظرية هي محور القصة بكاملها وهي التي شغلت جميع فلاسفة الاسلام . ويستكشف « حي » مبدأين : المادة والصورة ، بواسطتهما يتوصل الى اكتشاف وجود الله ، فاعتبر : « أن كل حادث لابد له من محدث » فلمس هذا الحدث في المحسوسات فلم يعثر عليه ، وانتقلت فكرته الى الأجرام السماوية ورسخ في ذهنه أنها تعقل ذواتها ، وأنها صادرة عن فلك واحد وهو الاعلى . وهنا يجب علينا أن نقف قليلا ونشير الى هذه النظرية التي كانت شائعة عند اليونان والتي اقتبسها العرب ولا سيما ابن سينا ، ووسعوا دائرتها . فانهم اعتقدوا أن الاجرام السماوية تعقل وتحيا وفيها العقل الفعال الصادر عن الله عز وجل ، وأن الله يعلم ما في الكون بواسطتها وهي أشرف الموجودات . وقديما دعوها أنصاف آلهة . ونتجاوز عن تفنيد هذه النظرية الخرافية التي تعد — الى جنب المباحث الفلكية العصرية — خرافة من خرافات القدماء .

ولما عرف « حي » حقيقة نفسه وأنها غير أجسانية وبها عرف « الموجود الواجب الوجود » حدث له شوق حثيث الى معرفة الخالق عساه يراه ، فشرع في تفحص الأعمال التي تقربه إلى الله عز وجل ، فوجد أن الطريقة المثلى هي : في ترك المادة وتثقيف الروح التي هي مبدأ روحاني صادر عن الله تعالى ، ولما كان يعلم ان الاجرام السماوية تعرف الله ، التمس لنفسه الصلاح بالتأسي بها ليتوصل اليه ، وهنا يعتنق حي مذهب الاتصال وترويض النفس والعزوف عن الاشياء المادية كما كان يفعل متصوفة المشرق . الا أن هناك فرقا كبيراً بين المذهبين يجب أن تنتبه اليه أيها القارىء ألا وهو : أن المتصوفين يصلون الى الله عز وجل عن طريق العاطفة الدينية والعلم الالهي ؛ أما حي المتصوف النظري فيتصل بالله عز وجل عن طريق البحث والنظر ، ويجهل تماما طرق الصوفية الدينية ، وعلى هذا المذهب مذهب التصوف النظري سار فلاسفة الاندلس فولدوا بذلك نزعة جديدة ضد التصوف الديني الشرقي . على أن ابن الطفيل إن اختلف مذهبا لم يختلف عنهم نتيجة بل أدى به هذا المذهب الى القول بالفناء والحلول ، ولكنه حلول معتدل مغشى بستار القصة الخيالي . فانه عند مايفنى حي في الذات الالهية ويوشك أن يعتقد أن ذاته لا تغاير ذات الله ، وأنه هو الله . يبادر ابن الطفيل ليبدد هذا الاعتقاد ، ويقول على لسان بطله « حي » : ان هذه الهواجس التي عرضت له وأقنعته أنه ذات الحق ، لم تكن إلا من بقايا المادة والأشياء الدنيوية . وهذه النظرية هي ماندعوها بنظرية الشمول النظري Sdéalisme panthéistique . ولا نريد أن نبحث في مثل هذه النظريات الالهية بل نترك الخوض فيها إلى أولياء الله العارفين ، تعالى الله عما يصفون .

فابن الطفيل اذاً يفضل الوصول الى الله عن طريق البحث العلمي النظري ، ويمثل لنا هذه النظرية ويدافع عنها في شخص « حي » وانه استطاع بنظره وفكره السامي اكتشاف الحق تعالى ، بدليل أن ابن الطفيل يدخل في القصة شخصاً آخراً « أسال » وهو العقل المهتدي الى الله عن طريق الدين والاجتهاد ، فيعجزه عن الوصول الى المقام الذي توصل اليه حي « وطلب حي مقامه الجليل فبلغه واقتدى به اسال حتى اقترب منه أو كاد » فلا ريب بعد ذلك في أن فيلسوف الأندلس يفضل الطريق النظرية على الطريق الدينية ؛ وأنه ما استطاع ان ينجو من ورطة هذا القول الذي كثيرا ما جر على آخرين التعذيب والتنكيل ، الا بواسطة هذا الوشاح القصصي الذي يلقيه على النظريات والمذاهب الفلسفية في رسالته النفيسة .

على أن ابن الطفيل لم يخل من اللوم ، وأرباب الدين يؤاخذونه على أربعة ١ — باهماله أمر النعمة وسقوط الطبيعة البشرية ٢ — بتفضيله

٥ ـــــ بلاط الشـــــهداء

بعد ألف ومائتي عام

للأســـتاذ محمد عبد الله عنان

وكان الجيش الاسلامى فى حال تدعو الى القلق والتوجس ، فان الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكانت تتوق الى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة . وكان المسلمون فى الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأثقلوا بما لايقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى فكانت هذه الاثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم وتثير بينهم ضروب الخلاف . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش واهبته وخشى مما تثيره فى نفوس الجند من الحرص والانشغال وحاول عبثا ان يحملهم على ترك شىء منها ؛ ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد . وكان المسلمون من جهة أخرى قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة . ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة

وبدأ القتال فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك جزئية مدى سبعة أيام أو ثمانية احتفظ فيها كل بمراكزه . وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة فاقتتلا بشدة وتعادل حتى دخول الليل . واستأنفا القتال فى اليوم التالى ، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد حتى بدا الاعياء على الفرنج ولاح النصر فى جانب المسلمين . ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة الى معسكر الغنائم الاسلامى ، وخشى عليه من السقوط فى أيديهم ، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحـــة مجهول فى المراكز الاسلامية بأن معسكر الغنائم يكاد يقع فى يد العدو . فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة الى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم . فدب الخلل الى صفوف المسلمين ، وعبثا حاول عبدالرحمن أن يعيد النظام وان يهدىء روع الجنـد ، وبينا يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها ، اذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته ، فسقط قتيلا من فوق جواده ، وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الاسلامى ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين وكثر القتل فى صفوفهم ، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من اكتوبر سنة ٧٣٢ م (أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ) (١)

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الاسلامى ، واختلف الرأى وهاجت الخواطر وسرى التوجس والفزع . ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض فقرروا الانسحاب على الأثر . وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم وارتدوا فى جوف الليل ، وتحت جنح الظلام جنوبا ، صوب قواعدهم فى سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم اسلابهم غنما للعدو . وفى فجر الغد لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية فتقدما منها بحذر واحجام فالفياها خاوية خالية الا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر . وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو ولم يجرؤ على مطاردته وآثر العود بجيشه الى الشمال .

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت فى أكتوبر سنة ٧٣٢م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرة شعبان سنة ١١٤ هـ بيد أن الرواية الاسلامية تختلف فى تحديد هذا التاريخ ، فالبعض يقول انها كانت سنة ١١٥ هـ (ابن عبد الحكم ص ٢١٧ ـ الضبى فى بغية الملتمس رقم ١٠٢١ — ابن عذارى ج ١ ص ٣٧ ولكنه يعود فيذكر ان الموقعة كانت سنة ١١٤ هـ — ج ٢ ص ٢٨) . ولكن ابن الاثير (٥ ص ٦٤) وابن خلدون (٤ ص ١١٩) والمقرى عن ابن حيان (ج ٣ ص ١٠٩ و ج ٢ ص ٥٦) متفقون على انها كانت سنة ١١٤ هـ — ويقول الاخير أنها كانت فى رمضان سنة ١١٤ هـ . وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية

المعرفة بالعقل على المعرفة بالأيمان . ٣ ـ باعتقاده أن الانسان قادر على رؤية الله عز وجل فى الدنيا . ٤ ـ بأقواله المنتجة مذهب تأليه الكل أو البانتيسم الشمولى . وما كان أحد ليخلو من عتب أهل الدين ولومهم . ومدار القصة بكاملها هى أن معرفة الله الفلسفية أسمى من المعرفة الدينية ، وهذا ما لاقى فى سبيله ابن رشد واضرابه من التعذيب والاضطهاد ما لاقى

هذه لمحة ـ ربما تكون سطحية فى قصة حى بن يقظان ـ عن النظريات والمذاهب الفلسفية التى تضمنتها ، وربما عدنا الى الموضوع فى بحث آخر نفصل فيه العناصر الاجنبية فى فلسفة ابن الطفيل وتعاليمه ، ونختم الآن هذا الفصل فى أن : فيلسوف الاندلس قد أجاد كل الاجادة فى سبك قصته الفلسفية وأسلوبه فيها جميل سهل وجذاب يقرب إلى ذهن القارىء الاقوال الفلسفية ، ومع أن إنشاءها سهل وبسيط رائق لم تخل أحيانا من التعقيد والغموض . ونتيجة القول أن هذا الكتيب النفيس مشحون بالتعاليم الفلسفية الاسلامية ترفرف عليه روح الافلاطونية الحديثة ، ومن يطلع على هذه القصة يوافق الافرنج على حكمهم : « انها آية من آيات القصص العربية الحكيمة ومختصر فلسفة العرب . » اهـ

طرطوس سوريا احمد المحمود

هذه هى أدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة طبقا لمختلف الروايات. والآن نورد ماتقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الاسلامية.

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب، وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب فى صور مثيرة محزنة، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول احداها: « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله وانه لا يستطيع الانتقام اذا لم يتلق النجدة من احدى النواحى، تحالف مع عرب أسبانيا ودعاهم الى غوثه ضد الأمير شارل وضد النصرانية. وعندئذ خرج العرب وملكهم عبدالرحمن من أسبانيا مع جميع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم فى جموع لا تحصى ولا تقدر، وحملوا كل ما استطاعوا من الاسلحة والذخائر كأنما عولوا على البقاء فى أرض فرنسا. ثم اخترقوا مقاطعة جيروند واقتحموا مدينة بوردو وقتلوا الناس فى الكنائس وخربوا كل البسائط وساروا حتى بواتيو.. (١)

وتقول أخرى: « ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قدغصت بجموعه اقتحم الجبال ووطىء السهول بسيطها ووعرها، وتوغل مثخنا فى بلاد الفرنج ومحق بسيفه كل شىء، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزما أمامه لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده. ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها التقى بكارل أمير فرنج أوستراسيا وهو رجل حرب منذ فتوته، وكان أودو قد بادر باخطاره وهنالك قضى الفريقان أسبوعا فى التأهب واصطفا أخيرا للقتال ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع ومنطقة من الثلج لا تخترق واثخنت فى العرب بحد السيف »

« ولما ان استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) بقوة أطرافهم الضخمة، وبأيديهم الحديدية التى ترسل من الصدر توا ضرباتها القوية ان يجهزوا على جموع كبيرة من العدو، التقوا أخيرا بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته. ثم دخل الليل ففصل الجيشان والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقارا للعدو. فلما استيقظوا فى فجر الغد ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم تأهبوا للقتال معتقدين ان جموع العدو جاثمة فيها ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ألفوا جموع المسلمين قد فرت صامتة تحت جنح الليل مولية شطر بلادها. على انهم خشوا ان يكون هذا

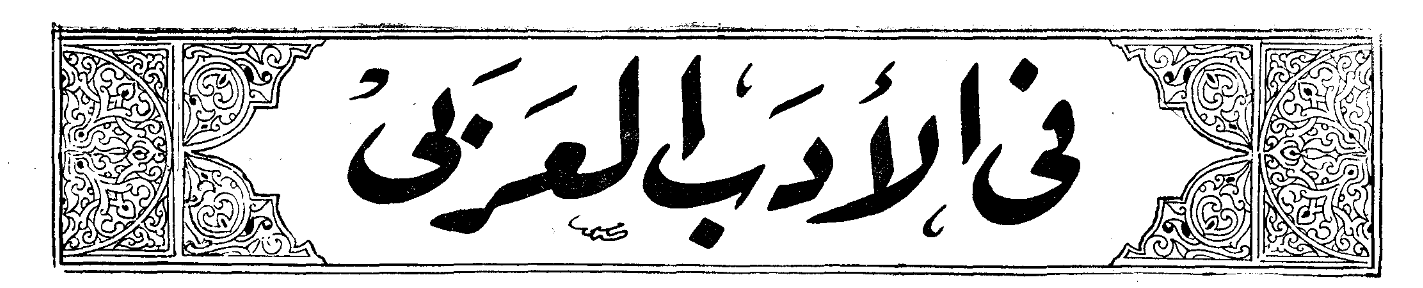
(١) هذه هى رواية القديس دنى saint Denis — وردت فى موسوعة بوكيه Dom Boquet: Receuil des Historiens de Gaule et de la France —III—310 ووردت فى هذه الموسوعة أيضاً أقوال أخرى من الرواة الاحبار

الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى فاحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين. ولكن الغزاة قد فروا. وبعد ان اقتسم الفرنج الغنائم والاسرى فيما بينهم بنظام عادوا مغتبطين الى ديارهم (١) »

وأما الرواية الاسلامية فهى ضنينة فى هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث بالصمت أو الاشارة الموجزة كما سنرى غير أن المؤرخ الاسبانى كوندى يقدم الينا خلاصة من أقوال الرواية الاندلسية المسلمة (٢) عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ننقلها مترجمة فيما يلى:- (يتبع)

(١) هذه هى روايه ابزيدور الباجى وهو معاصر للموقعه — راجع Creasy: ibidch VII-Holgkin : Charles the Great وكذلك Gibbon: ch.III, Ch LII ففيها تنقل هذه التفاصيل وتلخص

(٢) لم نقف فى أى المصادر العربية التى بين أيدينا على أصل هذه الاقوال التى يقول كوندى انه اقتبسها من الرواية العربية ولم يذكر هو مصدر اقتباسه. ومن المحقق أنه نقلها عن بعض مخطوطات الاسكوريال أو الجمعيات الخاصة التى لم تتداول حتى عصرنا. ولعله نقلها على الاغلب من كتاب جذوة المقتبس للحميدى حيث يقول فى مقدمته أنه انتفع به فى عصر الفتح والولاة الاوائل. ولعله أيضاً نقل شيئاً منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال ويلوح لنا أن الحجارى فى كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقرى عنه شذرة تفيد ذلك (نفح ١ ص ١٢٩) ولعل كوندى وقف على شىء منها. غير أن هذه المصادر جميعها لا توجد للاسف بين أيدينا وليست بين محتويات دار الكتب المصرية وما تزال مخطوطة فى ظلمات الاسكوريال وغيره من المكاتب الاوربية. وقد يتاح لنا يوما أن نظفر بالاطلاع عليها والانتفاع بها راجع حديث كوندى عن مصادره فى مقدمه الترجمة الانكليزيه (ج ١ ص ٢٣)



عكاظ والمربد

للأستاذ احمد أمين

تتمـــة

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه ؛ جاء فى الاغانى « وكان لراعى الابل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة » (١)

وكان الناس يخرجون كل يوم الى المربد ، يعرف كل فريق مكانه فيجلس فيه ينتظر شاعره ، فقد روى الاغانى أيضا أن جريرا بات يشرب باطية من نبيذ ويهمهم بالشـــعر فى هجاء الفرزدق والراعى ، فما زال كذلك حتى كان السـحر وقد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمير فلما ختمها بقوله :

فغض الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

كبر ثم أصبح حتى اذا عرف أن الناس قد جلسوا فى مجالسهم بالمربد ـ وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا فادهن ولف رأسه ودعا غلامه فأسرج له حصانا وقصد مجلسهم وأنشدها فنكس الفرزدق وراعى الابل(٢)

ونرى بجانب هؤلاء الفحول أعنى جريرا والفرزدق والأخطل طائفة أخرى من كبار الرجاز يقصدون المربد وينشدون رجزهم ، فالعجاج الراجز يخرج الى المربد عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد أجاد رحلها ويقف بالمربد على الناس مجتمعين ، ويقول رجزه المشهور :

« قد جبر الدين الأله فجبر »

ويهجو ربيعة فيأتى رجل من بكر بن وائل الى أبى النجم ويستحثه على الرد عليه فيخرج أبو النجم الى المربد ويقول رجزه :

« تذكر القلب وجهلا ماذكر »

ورؤبة الرجاز ينشد رجزه :

« وقاتم الأعماق خاوى المخترق »

ويجتمع حوله فتيان من تميم فيرد عليه أبو النجم فى رجزه :

« اذا اصطبحت أربعا عرفتنى » (٣)

كذلك نرى ذا الرمة يقف بالمربد وعليه جماعة مجتمعة وهو قائم وعليه برد قيمته مائتادينار ؛ وينشد ودموعه تجرى على لحيته :

« مابال عينك منها الماء ينسكب » (٤)

وينشد كذلك بعض قصائده فيقف خياط فينقد شعره نقدا شديدا ويسخف بعض تشبيهاته ، فيمتنع ذو الرمة عن الذهاب الى المربد حتى يموت الخياط (٥) .

والامراء والولاة قد يتدخلون فيسكتون بعض الشعراء . وقد يهيجون بعضهم على بعض خدمة لاغراض حزبية اوسياسية فعبدالملك ابن مروان يأمر أبا النجم بالمفاخرة مع الفرزدق . وعباد بن حصين ـ وكان على أحداث البصرة ـ يعين جريرا على الفرزدق ويعير جريرا الدرع والفرس والسلاح (٦)

وهكذا كان المربد فى العهد الأموى معهدا كبيرا أنتج أدبا غزيرا من جنس خاص . وكاد هذا الشعر يكون امتدادا للشعر الجاهلى . لاتحاد الاسباب والبواعث ، فأما الشعر الغزلى كشعر عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فليس له كبير أثر فى المربد لانه فوق النزال والمهاجاة والمفاخرة . فليس مجاله حياة المربد التى وصفناها.

المربد فى العصر العباسى :

بقى المربد فى العصر العباسى . ولكنه كان يؤدى غرضا آخر غير الذى كان يؤديه فى العهد الأموى . ذلك أن العصبية القبلية ضعفت فى العصر العباسى بمهاجمة الفرس للعرب. وأحس العرب بما هم فيه جميعا من خطر من حيث هم امة لافرق بين عدنانيهم وقحطانيهم ، فقوى نفوذ الفرس وغلبوا العرب على أمرهم . وبدأ الناس فى المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هى أقرب الى حياة الفرس من حياة العرب ؛ وانصرف الخلفاء والامراء عن مثل النزاع الذى كان يتنازعه جرير والفرزدق والأخطل وظهرت العلوم

(١) أغانى ٧ ـ ٤٩ (٢) اغانى ٧ ـ ٥٠

(٣) انظر الاغانى ٩ ص٧٨ ومابعدها . (٤) أغانى ١٦ ـ ١٢٣

(٥) أغانى ١٦ ـ ١١٣ (٦) أنظر الكامل للمبرد

تراجم الأدب والشعر ؛ وفشا اللحن بين الموالى الذين دخلوا فى الاسلام ؛ وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم ؛ فتحول المربد يؤدى غرضا يتفق وهذه الحياة الجديدة

أصبح المربد غرضا يقصده الشعراء لاليتهاجوا ؛ ولكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية ، يحتذونهم ويسيرون على منوالهم ؛ فيخرج الى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما ، ويخرج الى المربد اللغويون يأخذون اللغة عن أهله ويدونون مايسمعون ، روى القالى فى الأمالى عن الأصمعى ، قال : « جئت الى أبى عمرو بن العلاء . فقال لى من أين أقبلت يا أصمعى ؟ قال جئت من المربد ؛ قال هات مامعك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ؛ فمرت به ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج يعدو فى الدرجة وقال : ـ شمرت فى الغريب ـ أى غلبتنى » (١) .

والنحويون يخرجون الى المربد يستمعون من أهله مايصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم ، فقد اشتد الخلف بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة فى النحو وتعصب كل لمذهبه ؛ وكان أهم مدد لمدرسة البصرة هو المربد ؛ وفى تراجم النحاة تجد كثيرا منهم من كان يذهب الى المربد يأخذ عن أهله . ويخرج الأدباء الى المربد يأخذون الأدب من جمل بليغة وشعر بليغ وأمثال وحكم ، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم ؛ كما فعل الجاحظ ؛ يقول ياقوت : ان الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش واخذ الكلام عن النظام وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد (٢) .

وبذلك كان المربد مدرسة من نوع آخر تغير برنامجها فى العصر العباسى عن برنامجها فى العهد الأموى وأدت رسالة فى هذا العصر تخالف رسالتها فى العصر السابق

آخر الأخبار عن المربد :

فى ثورة الزنج التى ظهرت فى فرات البصرة والتى بدأت سنة ٢٥٥ ﻫ حدث قتال بالمربد بين الزنج وجيش الخليفة ، فاحترق المربد ؛ روى الطبرى قال : يقول ابن سمعان : فانى يومئذ لفى المسجد الجامع اذ ارتفعت نيران ثلاث من ثلاثة أوجه : زهران والمربد وبنى حمان فى وقت واحد ، كأن موقديها كانوا على ميعاد ، وجل الخطب وأيقن أهل البصرة بالهلاك (٣) .

وتوالت فيه الحرائق وعوتب شاعر البصرة أبو الحصين بن المثنى على أنه لم يقل شيئا فى حريق المربد ؛ مع أن المربد من أجل شوارعها ، وسوقه من أجل أسواقها ، فقال ارتجالا فى آخر حريق لها :

أتتكم شهود الهوى تشهد ... فما تستطيعون أن تجحدوا
فيامربديون ناشدتكم ... على أننى منكم مجهد
جرى نفسى صاعداً نحوكم ... فمن أجله احترق المربد
وهاجت رياح حنينى لكم ... وظلت به ناركم توقد
ولولا دموعى جرت لم يكن ... حريقكم أبداً يخمد (٤)

ويذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٩٩ أن سيف الدولة صدقة بن مزيد تقاتل مع اسماعيل فنهبت البصرة وغنم من معه من عرب البر . . . ولم يسلم منهم الا المحلة المجاورة لقبر طلحة والمربد . فان العباسيين دخلوا المدرسة النظامية وامتنعوا بها وحموا المربد وعمت المصيبة بأهل البلد سوى من ذكرنا (٥) .

ويقول ياقوت « إن المربد كان سوقا للابل ، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وهو الآن : (عاش ياقوت حتى سنة ٦٢٦ ﻫ) — بائن عن البصرة ؛ بينهما نحو ثلاثة أميال ، وكان مابين ذلك كله عامرا وهو الآن خراب ، فصار المربد كالبلدة المفردة فى وسط البرية » .

ثم عفا أثر المربد ، ولم نعد نجد له ذكرا ذا قيمة ، وأخنى عليه الذى أخنى على عكاظ ؛ ومات بموته معهدان أدبيان اتصلت حياة الثانى منهما بحياة الاول فقاما نحو ستة قرون يخرجان شعراً وأدبا ونقدا كان من خير تراث العرب ؟

(١) الامالى ٣ ص ١٨٢

(٢) معجم الادباء ٦ ص ٥٦

(٣) الطبرى ٣ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعة أوربا

(٤) معجم البلدان

(٥) الكامل لابن الاثير جزء ١٠ ص ١٥١ طبع بولاق

مِنْ طرائفُ الشِّعرُ

ذقتـــه مرتين

للأســتاذ بشارة الخورى

أتت هند تشكو إلى أمها ... فسبحان من جمع النيرين
فقالت لها : إن هذا الضحى ... اتانى وقبــلنى قبُلتين
وفرّ فلما رآنى الدجى ... حبانىَ من شَعره خصلتين
وما خاف يا أم بل ضمنى ... وألقى على مبسمى نجمتين
وذوّب من لونه سائلاً ... وكحّلنى منه فى المقلتين
وجئت الى الروض عند الصباح ... لأحجبَ نفسىَ عن كل عين
فنادانىَ الروضُ يا روضتى ... وهمّ ليفعل كالأولين
فخبأت وجهى ولـكنـه ... الى الصدر يا أم مد اليدين
ويادهشتى حين فتّحتُ عينى ... وشاهدت فى الصدر رمانتين
ومازال بى الغصن حتى انحنى ... على قدمى ساجداً سجدتين
وكان على رأسه وردتان ... فقدم لى تينِك الوردتين
وخفت من الغصن اذ تمتمت ... بأذنىَ أوراقُه كلمتين
فرحت إلى البحر للابتراد ... فحملنى ويحه موجتين
فما سرت إلا وقد ثارتا ... بردفىّ كالبحر رجراجتين
هو البحر يا أم كم من فتىً ... غريق وكم من فتى بين بين
فها أنا أشكو اليك الجميع ... فبالله يا أم ماذا ترين
فقالت ، وقد ضحكت أمها ... وماست من العُجب فى بُردتين
عرفتهم واحداً واحـداً ... وذقتُ الذى ذقتـهِ مرتين

حـــلم

رأيتُ أمسِ حُلمُاً ... روّعنى فى مضــجعى
رأيتنى مع الحبيـ ... ـب فى عتـــاب موجع
آلمتــهُ من غيرتى ... ظلمـــاً بلا تورع
ثم طلبتُ صــفحه ... لـكنه لم يســمع
فعــد تولّى مغْضَباً ... ولم يُفــد تضرّعى
وعنــدما أمسكتـهُ ... من ثوبه صاح : دعِ
لـكننى عنــد انتبا ... هى من منامى المُفزِع
وجدتُهُ بجـــانبى ... مســتغرباً من جزعى
يســـألنى فى رقةٍ ... عن حُلمُى وأدمعى !

كرمة ابن هانى ... حسين شوقى

ليل المعـــذّب

هذا عُبابُ الظلام وافَى ... يَسحبُ فوقَ الثرى خُطاهُ
أعشَى عيونَ الورى عَماهُ ... وأفزعتْ فى الكرى رُؤاهُ
....
ليلٌ كلونِ الغرابِ داجٍ ... مُغفلٌ أغمٌّ اكتسى وقارا
كانمـــا النور فِى حَشاهُ ... عنمستهلّ الصديعِ جارا(١)
....
تَحسبهُ لجّةً غضوُبا ... كلٌّ سبُوحٍ بها غريقُ
أو مهمهاً موحشاً مُريعاً ... عمّارُه الدهرَ لا تُفيق
....
يزْفِر وجداً به المغنىّ ... فيستحيل الاسى دموعاً
ويستحيل العذابُ جمراً ... والقلبُ فِى كهفه صدُوعا

(سورية) حمص ... رفيق فاخورى

حيـاة ثانية

أىُّ نور ألقَى علىَّ غرامى ... فاشتريتُ الآمال بالآلامِ
كان ذا الجسمُ عُصبةً من جراحٍ ... تتنزى فى هيكل من حطامِ
كان ذا القلبُ شعلةً من عذاب ... وشجون ولوعة وضرام
كان ذا الطرف منهلا سَرْمَدِيًّا ... يغمر الروح بالدموع الدوامى
كنتُ واللهِ فى شبابىَ شيخاً ... لاح للناس فى مُسُوح غلام
....
كان ذا الشعرُ غنوة اليأس فى القلـ ... ـب ونايًا أنعى به أحلامى
كان عمرى كأنه حلكة الليـ ... ـل على عالَمِ الدُجَى المترامى

(١) الصديع : الفجر

كنت لا أعرف التبسم حتى   عودتنى المنى ابتذال ابتسامى
شفتاى الحزينتان وقلبى   وعيونى مدينة لغرامى

....

عالم أنت من جلال وسحر   وجمال وفتنة وسلام
فيك أمر غير الجمال سيبقى   أبد الدهر حيرة الأيام
فيك سحر من السذاجة والطهـ   ـر يمد الشعور بالالهام
قدهجرت الكروم والحان والسـ   ـاقى وصوت الكؤوس والانغام
وأبيت الحياة إلا خيالا   وعشقت الحياة بالأوهام
نتساقى بها الكؤوس من السـ   ـحر ونحيا فى روضة الأحلام
والأزاهير حولنا تتثنى   راقصات . بغير جرح دوامى
وطيور الخيال فيها تناغى   برقيق الغناء عذب الكلام
كل شىء حتى الأنين أراه   مستحبا موقع الأنغام

....

اشربى الكأس واتركى لى فيه   قبلة تستقر بين عظامى
قبل أن يخطر النسيم فيمضى   بأمانى الهوى ويذرو حطامى!

صالح جودت

الذكرى

لمن آهاتى الحرى   اذا ما أظلم الكون
ودمعة مقلة شكرى   يغالب سكبها الجفن

....

ذكرت هواى مذ شبنا   مع الأحلام فتانا
فرحت اقطع القلبا   وأذرى الدمع هتانا

....

ذكرت شفاهنا تدنو   وما تفتر فى اللثم
كلانا مدنف يحنو   كأن العيش فى حلم

....

ذكرت البدر والأفقا   ونجمة قلبى الدامى
ذكرت بخدها الشفقا   وفى العينين أحلامى

....

ليالى الأنس لم تبق   لقلبى غير ذكراها
يعانق طيفها عنقى   وثغرى لاثم فاها

....

أشاهد طيفها الباكى   مع الأدمع جوالا
واسمع صوتها الشاكى   يذيب القلب منهالا

....

سلاما أيها الحب   وإن أورثتنى شجوا
يخلد عهدك القلب   على ما فيك من بلوى

دمشق   م . جميل سلطان

على لسان شاب مصرى فى الثلث الاول

من القرن العشرين

ألا كم مر جيل بعد جيل   وماضى المجد لا يبغى إيابا
تنقل فى بلاد الأرض طرا   وغادر مهده منه يبابا
إلى أن عاده شوق لأم   تكابد من تنائيه عذابا
فحياها وأرسلها اليها   رياحا قد رددن لها الصوابا
سرين وقد حملن لنا جليا   نداء للمكارم مستجابا

....

كذا قمنا بعزم ليس يخبو   لنرفع مصر فى الدنيا شهابا
نعيد لها الشباب وكان حتما   علينا أن نعيد لها الشبابا
صحا فينا «الضمير» فماد شعب   صحا للمجد يطلبه طلابا
يعد الفكر فى ثقة سفينا   لبحر العيش مصطخبا عبابا
علينا الواجبات هناك شتى   وطرح الضيم أولها حسابا
فما نشطت بذاك العبء قوم   إلى فضل ولا شرفوا جنابا

....

بنى مصر الكرام سلام بدء   إذا ما نلتم العلياء طابا

دمعة على شاعر العرب الكبير

المرحوم حافظ بك ابراهيم

أرسل الينا الشاعر اللبنانى الرقيق سابا زريق قصيدة بهذا العنوان فى ٧٠ بيتا من أصدق الشعر وأروعه ، جلا فيها عواطفه النبيلة فى ذكرى فجيعة العرب بشاعرهم حافظ ، واذا ضاق باب الشعر فى الرسالة عن نشرها ، فلن يضيق عن تقديرها وشكرها . فللأستاذ الشكر الموفور والمعذرة الخالصة ؟

•

«الرسالة» وقعت غلطتان مطبعيتان فى قصيدة «احساساتى» للأستاذ الزهاوى التى نشرت بالعدد ١٥ ، ص٢٨ . الاولى سطر١٥ : بعد ماقدنموت ، وصوابها : بعد انا نموت والثانية سطر ٣٠ : خير قبر . وصوابها خير غيث .

من الأدب التركى الحـديث

عبـــد الحق حامد

للدكتور عبد الوهاب عزام

نشرت فى « الرسالة » الماضية ترجمة المقدمة المنثورة التى كتبها شاعر الترك الأكبر للمرثية الكبرى التى رثى بها زوجه فاطمة وسماها « المقبر » ووعدت أن أنشر فى هذا العدد مثالا من شعر هذه المرثية .

ولا أكتم القارىء أنى حين وضعت الكتاب أمامى - وهو زهاء ألف بيت تدفق بها قلب الشاعر الحزين على غير ترتيب - لم أدر كيف أختار: الرسالة لا تتسع للاسهاب ، والايجاز لا يفى بالابانة. ولولا وعد لقراء الرسالة سبق ما كلفت نفسى هذا الشطط .

عبرت الكتاب أنتقى من صفحاته ، أبدأ ترجمة الفكرة ثم يضطرنى إطناب الشاعر إلى الوقوف دون غايتها . وأجد البيت الفرد البديع مكملا أبياتا كثيرة فلا أستطيع أن أترجمه وحده، ولا أن أترجم كل ما اتصل به ، على أن فى بعض الأبيات إبهاما وغموضا وفى بعضها اضطرابا. وقد وصف الشاعر كتابه فى المقدمة التى يذكرها القارىء ، وقد ترجمت عجلان حين ضاق الوقت، حتى أرسلت المقال بالبريد على قطعات ، من خوف « الزيات » :

....

أواه لم يبق الحبيب ولا الدار ، وبقى قلبى ملؤه الأحزان والأكدار . كانت هنا الآن فصفرت منها اليد ؛ جاءت من الأزل وذهبت إلى الأبد .

ذهبت وبقيت هى ترابا ، وحلت رفاتها قفرا يبابا . أواه انما بقى من أنس القلب الكريم، قبر فى بيروت مقيم.

أين أين أفتش عن هذا الحبيب ؟ ومَن أسائل عن هذا الغريب. يارب ! أين أين هى: فى الأرض أم السماء ؟ رب ! من قذف بى فى هذا الشقاء ؟

يقولون : انس خلّ الوفاء ، فقد سلك طريق البقاء . هل يسع الخيال هذه الحقيقة ، وهل ترى العين هذه الفجيعة ؟

ما أسرع ما انقلبت بى الحال ! انقلاب لا يصدقه الفكر والخيال . أرى شيئا، أراه يشبه القبر ا ويشبه الحبيب حين أنعم النظر.

تمضى بى على الشك الليالى ، ويزيد على مرّ ها حزنى ووبالى.
إنها صدمة انقلاب قتّال ، فليت شعرى هل حُم لى الزوال ؟

هلمّ فاطمة اصعدى من اللحد ، وارجعى سيرتك التى أعهد.
لا تكتمى عنى هذا السّر. وأفصحى بكلمة . اواه إنما أريد كلمة منك.

ابتسمى ابتسام الورد ، وداوى جرح القلب . وأتمى أيام حياتى بنظرة معسولة ، أو ببسمة ساحرة .

أقبر هذا ؟ ما هذا الذى أرى؟ أمكان الحبيبة هذا الثرى ؟
انها لمحنة ،انها لحيلة، انها لفنائى وسيلة .

أنظر أنظر كيف حالَ الياسمين المنوّر ، وانظر إلى الوجه الوردىّ كيف اغبرّ : تعسا لك تعسا أيها الجدّ الأعسر ، وياويلتا الى يوم المحشر .

رب ما غاية هذا العيش الأغبر ؟ وما غدُ هذا البشر ؟
أبلغ فكرى روحها ، أوسيّر روحى إلى ترابها .....

ربّ ماهذا الصفر فى الحساب ، لكل الأرقام اليه انقلاب.
أهو عدم ذو وجود أو قبر فى اضطراب ؟ ....

لقد تولاها السقام ، وملأت صدرها الآلام ، تضحك وضميرها فى عذاب ، تخفى بضحكها خفى الأوصاب

وكم حسبها الناس فى سرور، وماسرورها إلا الحزن المكتوم، حتى ملأت باليأس نفسى ، وأثارت الفتنة فى قلبى .

القبر منتهى هذه الدقائق ، وسر عجيب من أسرار الخالق.
نور كلما مال للغياب ، هبط إلى كومة من التراب .

هذا أعلى الشواهق، وهذا أروع الحقائق ، أيها الشقى تلك حقيقة لا تدرك . هذا شأنك ، وهذه فى الدنيا حالك ....

لقد كانت شعرا بليغا مبهما ،كان فكرها شاعرا ملهما .
«صحراء وتزر وأشبر (١)» من وحيها وما كنت الا واسطتها....

(١) صحراء وتزر وأشبر ثلاث منظومات للشاعر

كنت أفهم هذا الوجه الشاحب ، الذى منح شعرى اللون المعجب. تأبى أفكارى أن يكتب ويُفهَم، وهل تنحت الجبال بقلم؟

اجتمعت ضروب الآلام فى صدرها ، والناس فى غفلة عن أمرها ؛ كان كل من رآها يشفق عليها ويحبها ، ولا يدرى لماذا؟...

وكانت ملكة الخلق الكريم والفكر السديد. تشعر بخطرات نفسى وتقرأ أسارير وجهى .

وكانت وإن لم تكثر الكتابة ، ملهمة لا تخطىء الأصابة ، وكم فتنت منها بالكلم الدقاق والذكاء العجيب ، قد عمر بها شعرى الخراب ، وتلألأ فيه صنعها العجاب . كانت نجى الأفكار فى نفسى خبيرة بالكلمات التى تندّ عنّى .

....

تذبل الوردة الناضرة فتخلفها وردة أخرى ، تضىء مكانها وتفترّ ، كان الأولى لم تتغيّر . وتغرب الشمس المنيرة فاذا هى فى الصباح مشرقة . ولكن شجرة الورد هذه لن تزدهر ، ولكن هذا النجم فى غروب مستمرّ .

سلكتْ بىَ الفِكَرُ ألف سبيل وراءك أيها القمرَ فعىّ العقلُ دونك وأقصر . صاعقة ولكن لا يسمع صوتها ، ونور يسقط ولكن لا يبين ضياؤه .

....

يارب أين أين الحقيقة ؟ أجعلت الغم سر هذه الخليقة ؟ مهما طال بى الأنين واستمر ، فما هو الا كأنين الشجر.....

لاريب أن حياتى سم أنجرعه ، فيدنينى من الموت الذى أرتقبه ، شرّح هذا الوجود فهو عدم ، وقلّب هذا السرور فهو ألم .

ليت شعرى أفى الموت نجاتى؟ ليت شعرى ماذا يحبب الى حياتى؟ قد انهدمت خليقتك علىّ يارب فكيف تحتها ثباتى ؟

حسبى حسبى سَموم هذا القهر ، حسبى حسبى طغيان هذا النهر. أليس لهذه السيول تناهى ؟ حسبى جرعة واحدة ياالهى . مابقائى فى الدنيا ! أعضو أنا فى جسم الدهر ؟ أأنا يارب مرآة جلالك أم أنا شعاع من جمالك ؟ .....

....

أمامى مسجدَ التوحيد الوضاء ، وفى عقلى الشك وفى قلبى الرجاء . وفوقى لقاء السرمدية ، وتحتى فناء الآدمية .

أرجو من الخالق خلودا ، فيبدو لى التراب والحجر وعيدا(١) وأقول ان الانسان لا مرية ، الى الفناء ، فتصيح روحى : كلا إنه للبقاء ..

ان لم يكن للبشر مزية فى الوجود ، فلماذا توحى اليه المشيئة الخلود ؟ أيها القبر إنما هذا السكوت ، خطاب الحى الذى لا يموت .

(يستمر الشاعر يقيم الحجج على خلود الانسان ثم يرجع الى خطاب حبيبته ثم يخاطب الله بين الاعتراض والتسليم الى أن يقول)

رب كيف لا أشكو ؟ ألا يصيح الجريح؟ ماهذا القبر الذى أمامى؟ وضعت فيه حبيبا جميلا ، وجعلت التراب حدود عقلى ، وحبست ادراكى على هذا الحجر . واعتصمت بك فهويت علىّ . إن لم يكن للبكاء جدوى فكيف يسكت القلب اللجوج عن الشكوى ؟ لماذا تئن الطيور فى الأوكار ؟ أليس لقلبى أغنية كهذه الأطيار ؟

....

قالت لى يوما فى اضطراب : جئت الى الهند لأموت فى اغتراب . فضحكت من قولها وتكلفت الثبات ، ولكنى أحسست أن قلبى قد مات . ثم ودعنا الهند بين الموت والحياة .

جاوزنا القناة فى غم وكرب ، وليس القوت الا دم القلب . كلما سألت أجاب السعال الظالم . ذلك الجواب المظلم .

حتى اذا لم يبق الا رمق ، لاحت بيروت فى الأفق « ومر يوم ولم أدر بما كان وسألتها فاذا النعش عيان .

النعش هذا الدليل دليل المقبر ، النعش ذلك الهيكل الأغبر ، النعش ذلك الخطيب الأصم الأبكم ، النعش ذلك الهمود المجسَّم . النعش هذه السكتة المحيرة ، النعش تلك المصيبة المكررة . النعش ذلك الانقلاب الصموت . ذلك الحدّ المتحرك للعقل المبهوت . النعش خرابة الأمل الخامد ، النعش ذلك الاغبرار الخالد. النعش ظل المحشر على الاكتاف ، النعش ذلك الموت المتموج النفّت على هذه الروح ألواحه ففتحت ذراعىّ للموت .....

أيها التراب المضىء ، تراب الحبيب الصامت ! أيها النور الأسود الثابت ! ان قلبى ليتحطم من جمودك ، وان روحى لتموت من خمودك .

لا لا ، ليس ترابا انه موت نابت . لا لا ، ليس موتا انه جؤار صامت . لتحرس الملائكة هذا القبر ولتضىء عليه الثوابت .

....

ليس ترابا كله قبر الحبيب ، ان له قبرا آخر من النسيان الرهيب . النسيان أسفل المقابر ، النسيان مقتل الأكابر .

وقبر آخر ذلك القلب الهباء فهو والتراب سواء . فالحبيب ذلك الملك المسافر ، طائر بين هذه المقابر . . .

....

يارب ما أعظم محبتك التى أرى وما أعظم رحمتك التى

(١) يريد تراب القبر وأحجاره



في الأدب الغربي

« وإذا أتى يوماً ؟ »

قصيدة لموريس ماترلنك

للأستاذ ابى قيس عز الدين علم الدين

عضو المجمع العلمى العربى

بمناسبة مانشرته الرسالة البارعة فى العدد الرابع عشر من رواية بلياس ومليزاند ترجمة الأستاذ حسن صادق ، أبعث للرسالة بقصيدة تعد من روائع الأدب الرمزى ، وقد نقلت الى معظم اللغات الغربية ، وأما شاعر هـذه القلادة المروية فهـو الأديب البلجى الـكبير موريس ما ترلنك Maurice Maeterlinck الذى ولد فى غاندسنة ١٨٦٢ ، وقد نشأمفطوراً على حب الأدب ، فحذق الصناعتين ويعده البلجيون من عباقرة شعرائهم وكتابهم الخالدين : وقد أدخل فى الادب البلجى اسلوباً جديداً وامتازت قصائده بطابع حزن عميق يثير مكنون الاسى ، وأما رواياته التمثيلية فانها تقنع مطالعها بأن حياة الناس خاضعة لعوامل خفية ، وأن العالم الارضى مقضىٌ عليه بقضاء وقدرمضاعف : قدر الحِمام ، وقدرالغرام.

وأهم آثاره : بيوت الزجاج (١٨٨٩) ، الاغانى الاثنتا عشرة (١٨٩٧) ، الاميرة مالين(١٨٨٩) ، العميان(١٨٩٠)، بلياس ومليزاند (١٨٩٢) ، العصفور الازرق (١٩١١) ، كنز المتواضعين (١٨٩٦) ، الحكمة والقدر (١٨٩٨) ، حياة النحل (١٩٠١) .

والآثار الثلاثة الأخيرة تدل على براعة ماترلنك وعبقريته، وعلى رسوخه فى فلسفة الاخلاق وعلى شاعريته الجبارة ،

وأما قصيدته الخالدة الموسومة بعنوان «وإذا أتى يوماً ؟» فهى من مرويات أغانيه الاثنتى عشرة ، ويعود تأثيرها البليغ الى تأثير موقفها الفاجع ، ولعمرى أى أمر أفجع من موقف شقيقتين تحتضر احداهما فتسألها الاخرى عما تجيب به اسئلة خطيبها اذا ماعاد يوماً من دار هجرته الى دار مهجته ، فتجيبها، ولم يبق من شقيقتها إلا حشاشة ، بأجوبة رمزية تشبه غصص المنية ، وإليك الآن هذه الاغنية تلتاع القلوب الشاعرة لزفراتها، وتنتزع العقول العبرة من عبراتها . . .

س : وإذا أتى يوماً وعاد فما أقول لمن يعود؟

ج : قولى له : انتظرتك حتى فارقت هذا الوجود

....

س : وإذا الحَّ وليس يعرفنى ليكتشف الحقيقه؟

ج : فتحدثى معـــه كما تتحدثين الى شــقيقه

....

س : وإذا تساءل : أين أنتِ فمـــا يكون جوابه؟

ج : أعطـيه خاتمَ خطبتى الذهبىَّ فهـــو جـــوابه

تفيض بها الأرجاء كلها ! ألا يفنى فى هذا كله الفراق المنبعث من القبر ؟ . . . . . .

هذه الأنجم ضياء وحدتك ، وروحى كذلك أحد كواكبك، والحبيبة التى كانت ملكا — طارت لا ريب — الى جنتّك

كلماذكرتك اتسع خيالى ، وصارت فجرا منيرا هذه الليالى .

ما أعظم اسمك أنسا للروح ، انه يسير اليك فى صيحات الفؤاد المجروح ؛

....

أقول « الله » فينفسح المجال ، أقول « الله » فيفارقنى الزوال.

بحركة هذا الصوت الأعظم ، يطير جناحى وان حطَمه الغمّ

أنت أقرب الى الله يامحمد ، أيها العقل المعظم المؤبد ، أنت الذى سلكت بنا السبيل ، وكنت الى الله الدليل .

....

ليصمت بعدُ هذا النواح ، فلا تضيق به الأرواح ، هذه الآهة التى تفيض من الروح ، لن يسمعها بعدُ الاقلبى المجروح سأكون فى الدنيا قبرها ، تطوف فوق روحها ، سأصمت عن هذا النحيب، لأفرغ للتفكر فى الحبيب. اهـ

س: وإذا استراب وقد رأى في المخدع الخالى العجاج ؟
ج: فاريه أن الباب مفتوح مذ انطفأ السراج

س: وإذا استزاد مروّعًا عن حال ساعتك الاخيره ؟
ج: قولى له : إبتسمت مخافةَ أن تنوحَ على الكسيره

الفيحاء — أبو قيس

« بوفون BUFFON »

تمخض العالم عن شخصية « جورج لكلرك « قونت بوفون » فى مدينة «مونت بار» عام ١٧٠٧ . ولما يفع وترعرع دخل معهد الآباء اليسوعيين ، ليحتلب من ضرعيه علوم القرن الثامن عشر ؛ ولكن نفسه الجبارة، نزعت الى الطبيعة الخلابة، فودع بقية العلوم فى ذلك المعهد ، وراح يضرب فى انحاء ايطاليا وانجلترا ، يتحرى قوانين الطبيعة فى أماكنها ، ويدرس طبائع الحيوان والنبات عن كثب ، شأن البحاثة المدقق الذى لا يرضى بما لاح من صيد ، ولا يعود من مغامرته بالقشور دون اللباب . فانكب على العلوم الطبيعية ، يقتلها درساً وتحقيقاً ، حتى ضرب فيها بسهم صائب ، وبلغ منها ما أمل وما أراد ؛ ولم يدُر مع الأرض حول الشمس ٢٦ دورة حتى انتخب عضواً فى « أكاديمية » العلوم . وبعد هذا التاريخ بست سنوات عين ناظراً عاماً « لبستان الملك » الذى يطلق عليه الفرنسيون اليوم اسم « بستان النبات » . كان « بوفون » إذا أراد الكتابة ، اعتزل الضوضاء فى غرفة منزوية ، وارتدى ثوبه ذا الأكمام الموشاة ، والناطق باسم مقامه العالى ، وتقلد سيفه المحلى بحلى ثمينة ، ثم جلس الى مكتبه يتخير لأفكاره أشرف المبانى ، ولعواطفه أرق التعابير ، وحينما ينتهى من كتابته يعيد قراءة ما دبجته يراعته ، بصوت مرتفع أجش ، وجنان تتجاوب فى ارجائه عواطف الحماسة والعظمة ، حتى إذا ماهذّب ونقح ، وتلا ما كتبه ثالث مرة : غادر مكتبه وماء البشر يترقرق فى وجهه ، ونشوة السرور تدب فى جسمه . اشتغل بوفون مدة خمسين عاماً فى تأليف كتابه «التاريخ الطبيعى» جوهرة الأمس ودرة اليوم ، ولكن المنية شعبته فحالت دون تدوين دراسته المستفيضة بكاملها ، فظل الكتاب مبتوراً تنقصه ابحاث مهمة كالأفاعى والأسماك ، والحشرات والنبات ، وقد سد هذه الثغرة فى هذا الروض الأريض « لاسيد » تلميذ بوفون المخلص ، وصديقه الحميم .

ومهما يكن من شىء فأن شهرة « بوفون » ما زالت تطوى المراحل وتجوب الأمصار ، وسمعته ما انفكت تسير بذكرها الركبان ، وتتجاوب بصداها المحافل . وقد عرف له مواطنوه نبوغه ، فانتخبه المجمع العلمى الفرنسى عضوا فيه ، وأنعم عليه لويس الخامس عشر بلقب «قونت » .

ولم تخترمه يد المنون فى عام ١٧٨٨ حتى رأى تمثاله منتصباً فى مدخل متحف التاريخ الطبيعى ، وقد حفر عليه باللغتين الفرنسية والألمانية : « إن عظمة الطبيعة تساوى عبقريته »

ولست لأعرض الآن لأدبه بالتحليل والنقد ، فعساى أن أعود اليه فى يوم آخر ، ولكنى مترجم هنا آية من آياته الخالدة ، فى وصف الصحراء العربية .

* * *

« صحراء جزيرة العرب Le desert de l'Arabie »

« تصور بلاداً لا تتنفس عن اخضرار ، ولا تترقرق فى مآقيها المياه ! شمسها تتقد اتقاداً ، وسماؤها أشد جفافاً من الضرع الذاوى . تستر الرمال أدُمَ وديانها ، وتسيطر جنود الجدب على جبالها ! ! تطل عليها الباصرة فيضل البصر فيها ، دون أن ينعم برؤية شىء تتجاوب فيه خطرات الحياة .

أرض جر عليها الموت أذياله ، قد عصفت فيها أعاصير حاصبة ، نزعت عنها غلالتها الرملية ، فلا يصطدم فيها نظرك العُقابى ، إلا بهياكل عظمية ، وحصباء منتثرة ، وصخور منتصبة ، وأخرى مستلقية .

صحراء ليس بينها وبين وهج الشمس من حائل ، فليس بمقدور المسافر أن يفىء الى ظلال بليلة . هنالك لا صاحب

فيؤنس وحشته ، ولا شيئاً حياً فيذكره بالطبيعة الحية : عزلة مطلقة ، وارفة الجناحين ، ترعب أكثر من ألف مرة من عزلة الغابات ، لأن الاشجار كائنات حية فى نظر المنفرد المسكين الضال فى هذه المهامه الخاوية ، والمتمردة على سلطان الحدود.

يتراءى للمسافر حيثما اشاح بوجهه ، أن قبره منبوش فى هذه الفيفاء : فيرى نور النهار الساطع ، أكأب من حلوكة الليل الدامس ، لأن هذا النور لا ينبعث الا لينير له عن خوره وارتخاء مفاصله ، والا ليمثل له هول موقفه وحراجته، ذلك أنه ينأى عن عينيه حدود الخلاء . ويزيد فى بسطة هوة الأتساع ، تلك الهوة التى تفصله عن الأراضى الآهلة . رقعة واسعة تكفيه مؤونة التطواف ، ففيها جوع كاسر للطرف ، وفيها ظمأ عاصب للفم ، وفيها حرارة قادحة للثقاب . هذه كلها تضغط على ما بقى لديه من لحظات تتردد بين اليأس والموت».

حلب : عبد الوهاب حومه

بحر ناعس

(SLEEPING SEA)

لجون فريمان

بحـــر

كالطفل الغارق فى سباته .

يحتفظ

بخوالج وجدانه فى نهاره ليرددها على لسانه فى ليله

لا تكاد

تطفح لجته المرتفعة حتى تخور فتتراجع فى هوادة وبطء

والبحـــر

فى هدوئه كركود الطفل فى غفلته . القمر من هزاله كلهب الشمعة يذوى ويحتضر .

لاصـــوت

بالبحر كالطفل الحالم و فى سكرة نومه الحادة يئن بخفوت مؤلم.

ثم يرسل من أعماق صدره زفرات حارة فى تأوهات صامتة . لقد تشـــابها .؟

منوف احمد محمد البيه

اللقاء العجيب

لأندره شينيه

هى: أيها الغاب هل رأيت حبيبى قرب ماء الغدير عند الغروب؟
كم صباحٍ أتاك بل كم مساءٍ عند همس الصَّبا وشَدْو الجنوب
سوف أصغى لكل صوت بعيدٍ فلعلِّى أحظى به من قريب

هو: إيه يا موجة الغدير سلاماً يا عروس الماء النمير السَّكُوب
إحملى لى حبيبتى فهى عندى زهرة الحب فوق غصن رطيب
كم لثمت العشب الذى وطئته قدماها فى الغاب دون رقيب!

هى: آه لو يعلم الحبيب بشوقى وحنينى وحرقتى وشحوبى
هل أراه فى الغاب؟ إن خيالى لَـيراه فى ذا المكان الرحيب
سوف أدعوه بابتسام وعطف فعساه يكون بعدُ مجيبى

هو: رب هب لى رحماك صبراً جميلاً إنما الصبر جُنَّة المكروب
هل أتاها أنى لَيخفق قلبى لسماع اسمها الجميل الطروب ؟
سأنادى دوماً بصوت حنونٍ علَّها أن تجيب صوت الحبيب

هى: آه إنى رأيتـــه فأعنىّ يا لسانى فى ذا اللقاء الرهيب
إيه يا ناظرى ويا شفتيا إهدآ ساعة اضطراب القلوب

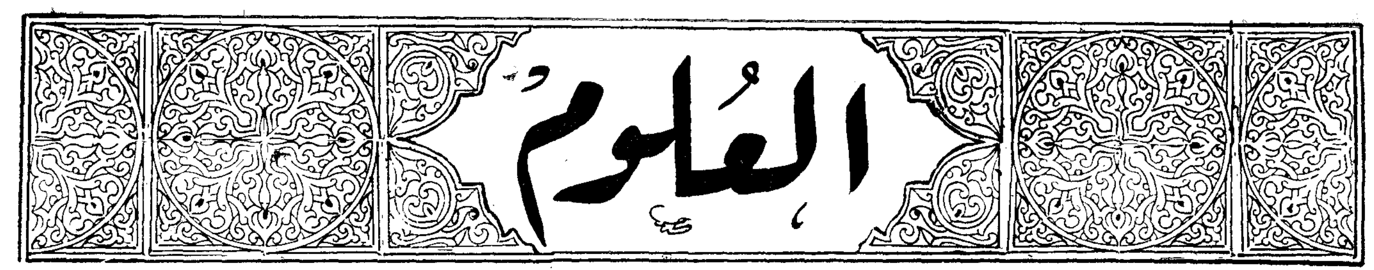
هو: ما لهذى الاوراق تهتزدونى ؟ قد بدا لى ثوب الفتاة اللعوب
إنه ثوبها فيا مقلتيا عبرا عن غرامىَ المحجوب

هى: أهنا أنتَ ؟ إن ذا لعجيب أنا وحدى فى ذا المكان الجديب
لم أفكر فى أن أراك ولكن جزْته نحو بيتىَ المحبوب

هو: أنا ألهو برؤية الموج وحدى وذُرى الزيزفون تجلو كروبى
لم أفكر فى أن أراكِ أمامى لم أفكر فى ذا اللقاء العجيب !

دمشق محمد ناجى الطنطاوى





نشوء الكائنات الحية على وجه البسيطة

للاستاذ السر أرثر طمسن

خلال الادوار الاولى لتاريخ الارض لم يكن فى مقدور اى مخلوق حى نتصوره ان يعيش وسط تلك الظروف، فقد كانت الحرارة مرتفعة جدا، وكان الهواء والماء معدومين فى وجه البسيطة، اذن فلا بد من ظهور المخلوقات الحية منذ عصور سحيقة فى القدم لا نستطيع معرفة تاريخها ؛ اما كيفية ظهور الحياة للمرة الاولى فلا يعلم احد ذلك بالضبط، وكل ما هنالك احتمالات متباينة نأتى على ذكر أهمها:

منذ القديم كان الاعتقاد السائد ان الحياة نشأت من طينة الارض بطريقة خارجة عن نطاق البحث العلمى، على ان هذا الرأى يفسد علينا فهم المسألة لتسرعه فى الحكم عن نشوء الحياة بهذا الشكل، فاذا كنا لا نعتبر هذا الرأى علميا فذلك لان العلم لا يعطى قرارا جازما ولا يبت فى أمور لها من الشك نصيب كبير.

وذهب فريق من العلماء وعلى رأسهم الاستاذان « هلمهلتز Helmhotz » واللورد كلفن Lord Kalvin الى ان المخلوقات الحية البسيطة لم تنشأ من صميم الارض بل جاءت اليها من الخارج محمولة بقطع الشهب المتساقطة او بواسطة الغبار الكونى، على ان تلك الكائنات ظلت فى حالة السبات لعدم ملائمة الظروف لها حينذاك، وبهذه المناسبة يجب ان نتذكر ان بذور النباتات تستطيع ان تقاوم البرودة والجفاف زمنا طويلا كما ان « البكتريا » تستطيع احتمال درجات مرتفعة من الحرارة دون ان تفقد حيويتها. وكما يرى الاستاذ « برثلو Berthelot » انه طالما لا يحدث انحلال جزيئى ففى إمكان الافعال الحيوية ان تتوقف عن العمل مؤقتا ريثما تعود الظروف الملائمة. اذن فنظرية اللورد كلفن تنسب أصل الكائنات الحية الى غير الارض.

وذهبت فئة اخرى من العلماء تقول بأن المخلوقات الحية البسيطة نشأت على سطح الارض من مواد غير حية اى من مركبات كربونية نصف سائلة بتأثير بعض الخمائر. وتعزز هذه النظرية بما وصلت اليه أبحاث علماء الكيمياء التركيبية الذين بحثوا فى تركيب بعض المواد العضوية كحامض الاوكساليك والنيل، وحامض الساليسليك والكافئين، سكر القصب بطرق صناعية بحتة. على أننا لا نعلم بالضبط من يقوم مقام العالم الكيميائى فى مختبر الطبيعة! ومهما كان الامر ففى المسألة غموض وتعقيد كبير ان لا نتخلص منهما الا بنتيجة واحدة وهى ان العلم لا يستطيع الى الوقت الحاضر ان يقول كلمته فيها.

أول جسم عضوى على الارض

ان أول ما يتبادر الى ذهننا التساؤل عنه هو كيفية نشوء المخلوقات الحية الاولى على الارض أو بالاحرى عن الحياة التى كانت تغطى وجه البسيطة فى ابتداء دور تكونها. ولأدراك ذلك علينا أن نستعين بابسط المخلوقات الحية فى الوقت الحاضر كبعض أنواع البكتريا أو العضويات الأحادية الخلية وخاصة المسماة منها بالاحياء الاولى (Protists) التى لا يمكن تعيين انتسابها الى المملكة الحيوانية أو النباتية. لا شك ان الجزم فى مثل هذه الامور يعد تطرفا لا يجيزه العلم: انما يميل العلماء الى التسليم بالنظرية القائلة، ان المخلوقات الاولى كانت كريات مجهرية من مادة البروتوبلازم الحية، لا تختلف عن أبسط أنواع البكتريا فى الوقت الحاضر الا بكونها تستطيع المعيشة فى الهواء والماء والاملاح الذائبة على السواء. ويظن أن العضويات البحرية الأحادية الخلية نشأت من هذا الاصل وكانت قادرة على صنع الكلوروفيل أو ما يشابهه وربما كانت هذه الوحدات الصغيرة الحية محاطة بغلاف سيليولوزى. غير ان طاقتها الكامنة عظمت فتمخضت عن ذنيبات أو شعيرات (flagella) صغيرة مكنتها من تسيير نفسها فى الماء للتفتيش عن الغذاء. ولا يزال من امثال هذه العضويات كثير فى الوقت الحاضر أغلبها يعيش فى الماء والبعض منها ـ وهى نباتات بسيطة أحادية الخلية ـ تصبغ سوق الاشجار وحتى الصخور الرطبة باللون الأخضر وندعى الخزيات (Algae) ويرى الاستاذ (شورش) A.H. Church أن البحار التى كانت تغطى وجه البسيطة فى مستهل تاريخها كانت مأهولة بهذه المخلوقات المذنبة الخضراء التى وضعت الحجر الاساسى لعالم النبات

ويظن ان الاحياء الاولى ولدت سلسلة أخرى من المخلوقات

المفترسة البسيطة لم يكن فى وسعها أن تكون المادة العضوية - الغذاء - من الهواء والماء والاملاح فكانت تعيش على افتراس ما يجاورها من العضويات. ان هذه الوحدات كانت عديمة الغلاف السيليولوزى بحيث يسهل للمادة الحية أو البروتوبلاسم القيام بالعمليات الحيوية المتنوعة على نحو ما نراه الآن فى الاميبا أو فى كريات الدم البيضاء وغيرها. من هذه العضويات المفترسة نشأت المملكة الحيوانية بأسرها.

نستنتج مما سبق ان الحيوانات الاولى والنباتات الاولى نشأت من الأحياء الابتدائية البسيطة ثم أخذ كل منها يسير فى اتجاه خاص.

بداية نشوء النباتات البرية :

من المحتمل جداً أن المياه كانت تغطى وجه الارض فى أدوارها الأولى، وأن ذلك البحر المترامى الأطراف كان مأهولا بالنباتات الابتدائية من ذوات الشعيرات (Flagellates) على أن انكماش القشرة الارضية احدث مرتفعات ومنخفضات فى قاع البحار، واقتربت على أثر ذلك الطبقات الصلبة فى بعض الأماكن نحو سطح الماء. فسمحت للنباتات العائمة أن تستقر هناك على مقربة من النور. هذا ما يصوره لنا الاستاذ « ش ش » عن مبدأ النباتات الثابتة وهى خطوة ذات شأن عظيم فى سير التطور. ويظن ان أول نجاح صادفته الحيوانات كان بين هذه النباتات القديمة. وقد أخذت اليابسة بالظهور عندما ارتفع قاع البحر فى الاماكن الضحلة تدريجيا. ان تلك النباتات الثابتة كانت اسلاف حشائش البحر التى تعيش على الشواطىء البحرية الآن.

الحيوانات الأولى

ان الحيوانات التى هى تحت مستوى « الحيوانات النباتية » (Zoophytes) والاسفنجيات تدعى بالحيوانات الابتدائية أو البروتوزوا (Protozoa) — ومعنى هذه الكلمة الحرفى الحيوان الاول — وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذه الحيوانات ان أبسطها قد ينيرنا عن بساطة تركيب الحيوانات الاصلية الاولى. والواقع ان أغلب الحيوانات الابتدائية المعروفة فى الوقت الحاضر هى على درجة من التعقيد لا نستطيع معه أن ندعوها « أولية » بالمعنى الصحيح، ومع ان أغلبها مجهرية الا أن كلا منها حيوان تام قائم بذاته يقوم بنفس العمليات الحيوية التى نقوم بها نحن، وتختلف عن الحيوانات العليا فى عدم تكونها من الوحدات التى نسميها « خلايا » فهى اذن خلية واحدة مستقلة عديمة الانسجة وعديمة الاعضاء — بحسب المفهوم العلمى لهذين الاصطلاحين — على اننا فى كثير منها نعثر على تعقيد كبير فى البنية الداخلية أكثر مما نقع عليه فى الخلايا الاعتيادية التى تبنى منها أنسجة جميع الحيوانات الراقية، وبهذا الاعتبار نستطيع أن نقول ان المخلوقات الابتدائية هى مخلوقات حية تامة لم تكتسب التكوين الجسمى بعد

بدء تكون الجسم

قال العالم الطبيعى «لويس اكاسيز» (Louis Agassiz) ان أكبر فراغ وجد فى العالم العضوى كان ما بين الحيوانات الاحادية الخلية والمتعددة الخلايا وبعبارة أخرى ما بين الحيوانات الابتدائية (protozoa) وما وراء الابتدائية (Metazoa). ولكن لم يبق ثمة فراغ بين الفرعين بتطور الاسفنجيات وأمعائية الجوف والديدان البسيطة وظهورها باجسام المرة الأولى. فكيف نعلل تكون الجسم وهو فى خطوات التطور الكبرى؟. ليس فى استطاعتنا ان نعلم كيف حدث ذلك على وجه اليقين أنما يمكننا ان نبسط هذا الرأى المستمد من دراسة عميقة وبحث دقيق :

عند ما ينقسم الحيوان الابتدائى (protozoon) الى شطرين أو اكثر - وهى طريقة التكاثر التى يتبعها - تنتشر الانسال وتعيش مستقلة بعضها عن بعض ؛ ولكن بعض الابتدائيات لا تنفصل أنسالها بل تبقى مرتبطة مع بعضها فالفولفوكس (Volvox) - وهو حيوان كروى اخضر اللون جميل يوجد فى بعض الاقنية، ماهو الا مستعمرة لألف أو عشرة آلاف خلية ومن مجموع هذه الخلايا نبدأ بتمييز الجسم. على ان خلايا الفولفوكس هى من نوع واحد بينما نجد فى خلايا الحيوانات التى تلى الابتدائية تخصص فى العمل مما يدل على رقيها فى توزيع الأعمال. فالجسم يبدأ بالتكون من تجمع قسم من المادة الحية حول كل نواة، ويرتقى تكوينه كلما حصل توزيع فى العمل وتميزت الخلايا الجرثومية (أو التناسلية) فيه عن الخلايا الجسدية.

اكتسابات عظيمة

ان تناظر الجسم العام فى حيوانات كشقائق البحر وقنديل البحر يكون شعاعيا أى لا يوجد له جهة يمنى أو يسرى ويمكن تنصيف الجسم باكثر من سطح واحد. وهذا النوع من التناظر ملائم جدا لحياة الارتكاز أو الانجراف مع التيار. على ان حياة الديدان كانت تتطلب الحركة فاستدق طرفاها وصار لها جهة امامية وجهة خلفية وأصبحت اغلب الحيوانات من الديدان الى الانسان ذات تناظر جانبى تتميز فى جسمها جهات أربع ولا يمكن تنصيفها الا بسطح واحد.

الاقيانوغرافيـــا

أو

تقويم المحيطات

بقلم الدكتور حسين فوزى

مدير ادارة أبحـاث المصائد

— ٢ —

أرموريك بلاد الانواء! رابضة فى درعها الجرانيتى عند الطرف الشمالى الغربى من فرنسا بين المانش والأطلانطيق. نشأ حول أخاديدها وجوناتها وخلجانها قوم من المجازفة عركوا أهوال البحر جنوبى أسلنده وشرقى الأرض الجديدة. ومن تلك الخلجان والجونات خليج دوارنينيه تشرف عليه من نواحيه المحمية من الريح الصرصر غابات الصنوبر. وهو فى أغلب أنحائه عار أجرد تحف به منازل صيادى السردين قائمة الى جانب الكنائس البريتونية المنحوتة من الجرانيت. عابسة للمحيط عابس لها. صامدة للعواصف تتلقاها على أسنة أبراجها الغوطية.

الوقت منتصف الليل وقد شهدت نسوة الصيادين عند غروب اليوم عودة النوارس فازعة من عرض البحر. فوجفن للعاصفة وارتفعت أبصارهن الى صور العذراء وتماثيلها فى أركان القرية وتحت أعطاف الكنيسة وفوق الاسرة الخشبية يتعوذن بها لتحمى أزواجهن وأولادهن وعشاقهن من هول النوء المهاجم.

وفى أشد مايكون صرير النوء تنصت نساء سانتان دى لايالود وأوديرن ودوارنينيه الى أصوات نواقيس تتصاعد من أعماق الخليج. تلك نواقيس عاصمة كورنواى الغارقة. «أيس» حاضرة الملك جرالون حامى حمى المسيحية الأولى فى أشخاص قديسيها رونان وكورنتان وجينوليه. من دون ابنته داهوت التى ركبت مركب الشيطان ففتحت المغاليق التى تحمى مدينة أيس من الاقيانوس.

يصيح سان جينوليه «البحر يامولاى. بادر الى جوادك» فيمتطى الملك جواده. وتقفز داهوت خلفـــه. ويحاول عبثا أن يلحق بالقديس السابح بجواده فوق العباب

— النجدة ياجينوليه!

— ألق تلك الملعونة فى اليم أو أنت من الهالكين.

واذ تبتلع الامواج داهوت يواصل الملك سراه حتى يوقفه جينوليه فيتلفت خلفه باحثا عن عاصمة كورنواى فأذا «أيس» لا أثر ولا عين طغت عليها أمواج خليج دوارنينيه.

كذا جاءنا حديث الخرافة بخبر مدينة «أيس» الغارقة. وخبر غيرها من المدائن. ليونيس وأسمايدا وسان برندان.

ولو أن الأمر وقف عند حد الخرافة لارتحنا إلى قصص السندباد. وتهريف بعض كتاب العرب إذ يقصون نبأ الجزيرة التى ينزل اليها النواخدة فما أن يوقدوا نيرانهم حتى تميد بهم وإذا هى حوت هائل يتأهب للعودة الى الأعماق. ولم نتساءل ان كان هذا حوتا أو تنينا أو دابة من دواب البحر الأخرى على حد قولهم.

ولكن فيلسوفا له فى نفوسنا إجلال وإعظام. هو أفلاطون ردد ما ذكر عن سولون من أنه عرف عن كهنة مصر بأمر جزيرة «أطلانطيس» الواقعة عبر أعمدة هرقليس فى البحر المحيط وهى بلاد «أكبر من آسيا الصغرى وليبيا مجتمعين» غزا أهلها جميع شعوب البحر الأبيض الا شعب أثينا من تسعين قرنا خلت قبل ميلاد سولون

لاشك ان هذا النوع الآخر من التناظر يلائم حياة اكثر نشاطا من الحياة التى تستلزم التناظر الشعاعى، لذلك كان فى وسع هذه الحيوانات الجانبية التناظر ان تفتش عن طعامها وتتجنب الأعداء وتتربص لاقتناص الزوج أو الزوجة. وقد رافق هذا التناظر تخصص القسم الامامى من الحيوان للتحسس بالمؤثرات الخارجية، وهكذا تميز الرأس عن الجسم وكانت تلك خطوة أولى فى تكوين الدماغ.

ثم ارتقى الحيوان فى مدارج التطور خطوات واسعة فكان له رأس نام فيه أعضاء للحس وتكون فى جوفه سطوح داخلية واسعة كالجدار الهضمى ومناطق الامتصاص فى قناة الطعام، ثم نمت فيه عضلات تتقلص وتنبسط بسهولة، واخيرا تأسس فيه نظام الدوران الذى جعل الدم وسيطا لنقل الاوكسيجين والمواد الغذائية الى كافة انحاء البدن وحمل الافرازات الضارة بالجسم لتفرز خارجا.

الهورمونات Hormones

وارتقت الحيوانات العظمية درجة أخرى بتكون غدد الافراز الداخلى كالغدة الدرقية، والغدة الادرينالية وغيرهما، وفائدة هذه الغدد تحضير مواد كيماوية يوزعها الدم على جميع أقسام البدن، ولها أثر كبير فى تنظيم العمليات الحيوية. وتعرف المواد الكيماوية التى تفرزها هذه الغدد باسم «هورمونات» التى تزيد فى فعالية الاعضاء والانسجة. ان بعض هذه الهورمونات تنظم النمو وتغير ضغط الدم وتركيبه بسرعة، والبعض الآخر يستدعى بعض أقسام البدن الى النمو الفعال كغدد الحليب فى الأم التى تتنبه بفعل بعض الهورمونات.

(الموصل) تلخيص: بشير الياس اللوسى

وعاد أفلاطون فى موضع آخر الى الاشادة بثراء « أطلنطيس » وحدث بانخسافها فى مياه الأقيانوس الغربى « الأطلنتى فيما بعد » فكانت عائقا للملاحة فيما وراء أعمدة هرقليس .

أبى الخلف الذى بجل يونان وفلاسفتها الا أن يصدق افلاطون فاعتقد بوفون ومونتينى وفولتير بحقيقة تلك البلاد المغمورة . وحاول الكثير أن يثبت أن الجزر السعيدة « الخالدات » هى البقية الباقية من « أطلانطيس » الجنة الأرضية

كذا كان هذا شأن الجزيرة التى قيل بأن القديس برندان عبر اليها المحيط . توجهت اليها بعثات الاستكشاف الاسبانية والبرتغالية حتى اتفق فى سنة ١٧٥٩ على أن جزيرة « سان برندان » لم تكن سوى سراب بحرى

ولكم حدثنا جواب البحار بأحاديث بنات الماء معسولات النغم . يغررن بالنوتى فيلقى بنفسه بين أحضانهن فيحملنه الى قصر ملك البحر فى أعماق المحيط . وهو قصر « جدرانه من المرجان ونوافذه من أرق ما يكون القهرمان . سقوفه من أصداف تتفتح عن لآلىء . تظلله أشجار عجاب تسبح بينها أسماك ذات ألوان كأنها طيور لاتعرف الأسجاع(١)

واذا كان النواخدة اهتموا بتعرف سطح المحيطات منذ أقدم العصور لأغراض الملاحة ، فقد ظل باطن البحر سرا أمعنت فى اغلاقه خرافات رواد البحار وأقاصيصهم بل وتلك المخلوقات الغريبة التى اصطنعوها اصطناعا ليدللوا بها على تهريفهم . ولا زلنا نذكر تلك السمكة التى اصطنع لها وجه قرد أو انسان للتمويه بها على الناس بأنها من عجائب البحار . وقد رأيناها معروضة فى متحف موناكو كأثر من آثار تلك العهود

ولم نذهب بعيدا وما فتىء صياد البحر الأحمر يتحدث اليك عن أسماك ذات أظلاف وشوارب أو شعور وصدر ناهد . وليس العهد ببعيد أن نشرت احدى كبريات صحفنا صورة وحش بحرى كبير لاصقة به سمكة صغيرة قيل عنها بأنها « تقوده لضعف بصره وتسعى لغذائه » . وكأنى بها أنتيجونى تقود أوديب الاعمى خارج اسوار طيبة

ليس من العسير إذن أن نكون صورة عن رأى الناس فى أعماق البحار وسكانها فى أواخر القرن الثامن عشر . وبيننا من لا يزال يعتقد « بالنص سمكة والنص بنى آدم » و « الهايشة » وما إليها من مخلوقات تبتلع المدائن فى لمح البصر بله الآدميين .

فاذا كانت استكشافات الملاحين فى القرنين الرابع والخامس عشر قضت على خرافة « أقيانوس » المحيط « باويقومينا » .

(١) أندرسن . قصة « بنت الماء »

المتفجر عيونا وغدرانا وانهارا . ورحلات الكابتن كوك فى أواخر القرن الثامن عشر أثبتت أن لا وجود لقارة جنوبية تصل أفريقيا بآسيا وتجعل المحيط الهندى بحرا داخليا فقد لبث الناس حتى القرن الثامن عشر جاهلين بأعماق البحار سوى النزر اليسير .

قيل فى موت ارسطاطاليس أنه ألقى بنفسه فى دوامات مضيق أوريبوس يأساً من تفهم تيارات ذلك المضيق . وهو موت « غير قمين لا بفيلسوف ولا بعالم اقيانوغرافى » (١)

الا اننا أقرب الى احترام الرجل الذى يحمله على الانتحار يأسه من تفسير ظاهرة طبيعية منا إلى احترام أمثال بلينيوس وهو يقول منذ نحو الف عام « أى وهر قليس لا يعيشن فى البحر ولا فى المحيط مهما عظما مخلوق ليس لنا به علم . بل الحق العجاب اننا أعرف بتلك المخلوقات التى غيبتها الطبيعة فى الاعماق منا بأى أمر آخر »

فهذا الغرور وتلك الحماقة من عالم كبير ينمان عن روح لم يسلم منها بعض العلماء وهى روح خطرة فى العلم سيئة الأثر على تقدم العالم . فذاك البلينيوس وهو لم يصف سوى نيف ومائة نوع من الاحيا البحرية — أى أقل مما وصفه أرسطاطاليس قبله — يتمشدق بمعرفته جميع الأنواع التى تعيش فى البحار . ما عساه قائل لو علم بالآلاف العديدة من تلك الأحياء التى كشف عنها علماء البحار بعده ؟

لم ينتحر هؤلاء العلماء يأسا من تفهم المحيطات كما زعموا عن ارسطاطاليس . ولم تتملكهم صفاقة بلينيوس فيشيدوا بعلمهم الواسع العريض ولكنهم جهزوا البعثات الاستكشافية ورعوا البحار منذ القرن الماضى إلى اليوم . يخرجون منها عجائب ليست من « الاطلانطيس » ولا « أيس » فى شىء ولا هى من بنات الماء وما اليها من خوارق . ولكنها بدائع ذلك الكوكب الذى نحيا على سطحه نسقتها الطبيعة تنسيقا يتفق وما أودعته فيها من قوى وما فرضته عليها من نواميس .

وانا لنستسمحن القارىء أن نقدم اليه بعض أولئك الأعلام الذين أقاموا ذلك الصرح البديع بين قصور العلم . أعنى صرح الاقيانوغرافيا . ولعل القارىء راغب معنا أن يعرف طرفا مما قاموا به فى هذا السبيل .

اكتشافات وأسماء أعلام

كان العالم بواش فى سنة ١٧٥٢ ممن اعتقدوا بالطوفان فقال بأنه اذ

(١) سير وليام هيردمان . مؤسس الأقيانوغرافيا

غيض الماء كشف عن الجبال فالأودية . ولو واصل الماء هبوطه لظهرت أعماق البحار وديانا تتوسطها جبال أخرى . فالجبال المغمورة بمياه الاقيانوسات تكمل سلسلة جبال اليابسه . وهى تقسم البحار أحواضاً متصلة فوق قممها المغطاة بالماء .

هذا النوع من التفكير قائم معظمه على أساس من المنطق ولكنه غير علمى إذ يتعدى ما يمكن استنتاجه من المشاهدات المباشرة . الا أن ما يعجبنا من بواش هو أن الاكتشافات الاقيانوغرافية أثبتت أن قاع البحار أغوار سحيقة وجبال مرتفعة وأنه قد يمكن اعتبار تلك الجبال حلقات من السلسلة الأرضية . وأن فى شواطىء بعض الجزر وانحدارها السريع الى أعماق بعيدة مايدعو الى اعتبار هذه الجزر قناة جبال شمخت برأسها على سطح المحيط . وأن المحيطات مقسمة الى أحواض تفصلها اسوار جبلية ، وأن هذه الاحواض إن ظهرت متصلة فلأن مياهها تغطى أعالى فواصلها الجبلية

قال صيادو المرجان « البحر لاقاع له » فهزأ مراسيمي بقولهم ووعد لو عنى أحد الأمراء بتجهيز سفائن خصيصا لدراسة الاعماق .

ومراسيمي رجل فرنسى مفكر يرتكز تفكيره على قواعد الموازنة والتقابل «symétrie» ولما كان مجرد وجود الجبل يعنى وجود الوادى فقد استنتج ان الشواطىء الجبلية تعنى انحدار الشاطىء عاجلا الى الاعماق . ولم يقف مراسيمي عند هذا المنطق . بل عنى بدراسة الاعماق القريبة وقسمها بحسب أنواع رواسبها وكان أول من وضع خرائط الأعماق مبينا عليها نوع القاع من صخرى ورملى وطينى

ولقد قيست درجة حرارة الماء تحت سطح البحر أثناء رحلات الكابتن كوك التى كشف فيها عن البحار الجنوبية . ولم يكن فى المستطاع قياس حرارة الماء الى عمق بعيد بدقة قبل اختراع ترمومترات النهاية الصغرى والنهاية العظمى وغيرها مما تسجل درجة الحرارة عند عمق معلوم ثم تبقى على تسجيلها فلا تتأثر بطبقات الماء التى تخترقها وهى عائدة الى سطح السفينة .

الا ان دى سوسور تمكن فى سنة ١٧٨٠ من قياس حرارة مياه البحر الابيض على عمق ٦٠٠ و١٠٠٠ متر بواسطة ترمومتر عادى أحاطه بموصل ردىء للحرارة .

تصل بنا هذه الملاحظات التى ترددت بين التخمين والملاحظة المباشرة الى أوائل القرن التاسع عشر حين انتشر نوع من الهواية هو عمل المجموعات الحيوانية والنباتية . وكان ذلك فاتحة عهد « الطبيعيين فى الخلاء » أو أولئك الذين يجوسون بالاحراج والجبال والأودية يلاحظون الاحياء فى وسطها الطبيعى وينتخبون منها مجموعات تمثل سكان المنطقة من حيوانات «Fauna» ومن نباتات « Flora »

فى ذلك العهد استعان دوناتى ومارسيلين على دراسة أحياء القاع الضحل قرب الشواطىء بمجرفة «dragne» الصيادين . والمجرفة كيس شبكى يحيط بفوهته إطار من حديد ذى أسنة . تسحب على القاع فيجرف الاطار الحديدى حبات الرمل أو الطين و تلقى الكيس مايجرف من تربة ومن أحياء تعيش على تلك التربة .

وانتشرت المجرفة بين علماء أوربا فبدأ يملن أدوار باستعمالها فى فرنسا سنة ١٨٣٠ وفوربس فى انجلترا سنة ١٨٣٢ وسارس فى النرويج سنة ١٨٣٥

كان من أثر امتحان الرواسب البحرية بالميكروسكوب فى ايطاليا فى أواخر القرن الثامن عشر أن لوحظت ظاهرة كان لها أحسن الأثر فى استثارة حب الاستطلاع البحرى عند علماء القرن التاسع عشر ، ذلك أنهم لاحظوا تشابها بين الحفريات التى وجدها الجيولوجيون فى باطن الأرض على أبعاد كبيرة من البحر . وبين مخلوقات بحرية تعيش قرب الشاطىء . . والحفريات كما يعلم القارىء بقايا أحياء انقرضت فى غابر عصور الأرض . وهنا دخل فى روع الباحثين أنهم لابد مهتدون فى قاع البحار الى نماذج حية من تلك المخلوقات التى لم يعثروا الا على آثار انقراضها فى قطاعات الجبال والأودية . وامتد خيال العلماء — وما حرم العلماء ملكة الخيال — الى يوم يكشفون فيه عن صورة حية لما كانت عليه الأرض منذ بضع ملايين من السنين .

وكاد فوربس الاسكتلندى يقضى على هذا الحلم الشائق اذ أفتى بعد رحلة الى بحر أيجه : بأنه لا أثر للحياة فى البحار بعد عمق ٦٠٠ متر

ومع أن فوربس أدى الى الاقيانوغرافيا أجمل الخدمات — فهو أول من لاحظ بأن الأحياء البحرية تعيش جماعات لكل عمق معلوم جماعة خاصة منها تختلف عن جماعة عمق آخر — ومع أنه وصف كثيراً من حيوانات الأعماق الضحلة حول الجزر البريطانية فقد كان خاطئا فى زعمه أن لاحياة بعد عمق ٦٠٠ متر . وحصل سيرات على مخلوقات تعيش فى البحر الأبيض على عمق ٣٠٠٠ متر . وجاء عهد وصل البلاد بالأسلاك التلغرافية عبر قاع البحر فكانت سببا فى سبر أعماق بعيدة . وكان أبعد غور وصل اليه ثقل مقياس العمق فى سنة ١٨٤٠ أثناء بعثة سير كلارك روس الى القطب الجنوبى هو ٦٠٠٠ متر . وحدث فى سنة ١٨٦٠ أن قطع سلك من أسلاك التلغراف البحرى على عمق ٢٥٠٠ متر فوجدت عالقة به مخلوقات حية .

كان طبيعيا أن تثير أمثال هذه الاكتشافات فى جميع الشعوب الحية الرغبة فى الاستزادة من تعرف أعماق البحار . واذ علم ويفيل تمسون الاسكتلندى بأن سارس النرويجى عثر على عمق ٦٠٠ متر فى فيورد لوفوتن على حيوان حى من فصيلة كانت تعد من الفصائل المنقرضة ، توجه اليه لمشاهدة ذلك الحيوان . وكان ويفيل تمسون من أولئك العلماء الذين بنوا كبار الآمال على اكتشاف مثل حية من الفصائل المنقرضة فى الأعماق البعيدة . فارتاد الاطلانطيق على ظهر السفينة « لايتنج » مرة والسفينة « بوركوبين » مرة أخرى . وسبر حتى عمق ٤٥٠٠ مترا فوجد فيه مخلوقات حية منها ما يتصل بفصائل انقرضت منذ العهد الثلاثى والطباشيرى .

طارت شهرة ويفين تمسون فى آفاق أوربا وأمريكا نتيجة اكتشافاته ولكنه بلغ قمة مجده حين ألقيت اليه مقاليد أكبر بعثة فى تاريخ الاقيانوغرافيا . وهى بعثة « تشالنجر »

تشالنجر : « أعظم البعثات الاقيانوغرافية »

قامت تلك البعثة على ظهر « تشالنجر » وهى سفينة شراعية حمولتها ٢٣٠٦ طن . ذات محركات بخارية مساعدة . خرجت من الجزر البريطانية فى سنة ١٨٧٢ وعادت فى سنة ١٨٧٦ بعد أن قطعت ٦٩٠٠٠ ميل فى الاطلانطيق والباسيفيك، وصلت فيهما حتى الحاجز الثلجى للقطب الجنوبى . أسند قيادها الى ويفيل تمسون وكان من أهم أعضائها جون مورى وبكنان، وقيدت مشاهداتها فى ٣٦٢ محطة حصلت منها على مجموعة ضخمة من الاحياء البحرية ونماذج المياه ونماذج القاع وسبرت حتى نيف و ٨٠٠٠ متر .

ومهما أشيد بأبحاث من تقدموا « تشالنجر » فقد كانت هذه البعثة فتحا مبينا فى دراسة المحيطات . ولا غرو أن تؤرخ الاقيانوغرافيا تبعا لها فيقال عهد تشالنجر وما قبله وما بعده .

استغرقت دراسة النماذج التى جمعتها البعثة ٢٠ عاما كانت فيها أدنبرة محط رحال العلماء من كل صوب . يتقاسمون شرف دراسة تلك المجموعات التى وزعت عليهم دون نظر الى جنسيتهم . لذا ظهرت مجلدات هذه البعثة الخمسين متوجة بأسماء أكبر علماء الحيوان والنبات والجيولوجيا والكيمياء والطبيعة . وبرغم السنين وتقدم الابحاث الاقيانوغرافية وابتداع الآلات الدقيقة فلا تزال تلك المجلدات مرجعا من أهم مراجعنا . وما تزال دراسة السير جون مورى والأب رينار لرواسب المحيطات أكبر عمدة لمن يختصون بهذا النوع من الدراسة .

ليس فى مكنتنا ونحن نستعرض سراعا بعثات الاستكشاف الاقيانوغرافى أن نقف طويلا ببعثة تشالنجر . وستعرض لنا فرص عديدة للعودة الى نتائجها . ونكتفى هذه المرة بتلخيص جد مقتضب لتلك النتائج .

بعض نتائج بعثة « تشالنجر »

١ — وضع خرائط لاحواض المحيطات والقضاء على المبالغات التى شاعت عن أعماقها وكان أبعد عمق سبرته البعثة نيفا و ٨٠٠٠ متر فى شمال الباسيفيك (١)

٢ — اثبات أن لا علاقة لحرارة مياه المحيطات بتغير الفصول بعد عمق ٢٠٠ متر

٣ — اكتشاف درجة حرارة ثابتة للمياه العميقة فى مساحات واسعة من المحيط . من ذلك أن اكتشفت البعثة ثبات حرارة مياه الاطلانطيق الشمالى بعد عمق ٤٠٠٠ متر عند درجة ٢٫٥ سانتجراد . كما أن حرارة مياه القاع فى الباسيفيك ثابتة عند درجة — ٠٫٨٣ سانتجراد .

٤ — دراسة كثير من تيارات السطح والاعماق فى المحيطات

٥ - محاولة فهم تكوين الشعاب المرجانية . وقد تعارضت نظرية مورى «وهى المؤسسة على نتائج بعثة تشالنجر » ونظرية داروين فى أصل تكوين هذه الشعاب . ولا تزال المعضلة قائمة اذ لم يصل أحدهما الى نظرية مقنعة . ولعل بعثة «السير جون مورى » فى المحيط الهندى تلك البعثة التى تقوم على ظهر السفينة الأقيانوغرافية المصرية « مباحث » توفق الى تفسير مقنع

٦ — اصلاح الخرائط الجغرافية فيما يختص بكثير من الجزر والشعاب

٧ — تقدم المعارف الحيوانية تقدما كبيراً وخصوصا ما عرف عن فصيلة الاحياء ذات الخلية الواحدة من « الرادبولاريا » و« الجلوبيجرنيا » . واكتشاف مئات من أنواع الاسفنج منها ذلك الحيوان البديع الذى أطلق عليه اسم « سلة أزاهير فينوس »

٨ — أثر الاعماق على الحياة . ففى الظلام الدامس الذى يغمر تلك الأعماق تعيش مخلوقات كف بصرها أو لا عيون لها أصلاً . وأعاضتها الطبيعة أعضاء فوسفورية تضىء سبيلها فى الغياهب .

تلك بعض نتائج بعثة « تشالنجر » نمر بها سراعا على كره منا

(١) أقصى عمق كان معروفا حتى عهد قريب هو ١٠٤٣٠ مترا وذلك على مقربة من جزر الفلبين وأخيرا اكتشف الاستاذ بول بارقش عند شمال شرق بورتوريكو الانتيل هوة بحرية عمقها ١٣٥٠٠ مترا . وقد قاسها بواسطة الجهاز الذى يسبر الاعماق بطريق سرعة انتشار الصوت حتى قاع البحر ثم ارتداد صداه مرة اخرى الى سطح الماء .

فقد كانت حادثا له خطره فى عالم العلم . وكانت الأقيانوغرافيا فى مهدها فنشأت ودرجت وتقدمت بخطوات الرجال فى الماضى القريب الى حد أن الدهشة تعرونا اذ نعلم أن آخر مجلد من تقارير البعثة صدر فى سنة ١٩٠٧ وأن بكنان أحد أعضاء البعثة لا يزال حيا . وأن السير جون مورى قتل فى حادثة سيارة سنة ١٩١٤ وكان قد حبس مبلغ ٢٠ الف جنيه يصرف فى سبيل بعثة جديدة . وتشاء الصدف أن يقترن اسم مصر باسم السيرجون مورى اذ تقوم هذه البعثة على ظهر السفينة المصرية «مباحث» فى سبتمبر المقبل رافعة العلم المصرى

بعثات أخرى

كانت « تشالنجر » نتيجة منطقية لتلك الحركة الواسعة التى اتجهت منذ القرن الثامن عشر إلى دراسة الطبيعة . وقد وافق قيام هذه البعثة ونجاحها تلك اللحظة العظيمة فى تاريخ الامبراطورية البريطانية حين بلغت تلك الامبراطورية فى أواخر القرن الماضى أوج عزها وشأو رفعتها . وبعثة « تشالنجر » ان امتازت فلا تمتاز بانفرادها ، ولا بأسبقيتها ولكن بأنها طمحت طموحا كبيراً وحققت مطمحها .

بيد أن أمريكا وجهت بعثة الى الباسيفيك معاصرة لتشالنجر . معاصرة لها أيضا رحلة السفينة الألمانية «غزال» حول الأرض . والبعثة النرويجية الى شمال الاطلنطيق . معاصر لها العلامة الاقيانوغرافى اسكندر أجاسيز . وهو سويسرى مولدا ونشأة هاجر الى أمريكا ورفع علمها العلمى على السفينة « بليك » والسفينة « الباتروس »

ولم تقف فرنسا ولا ايطاليا وراء الصفوف بل قامت الاولى بقسطها العلمى على ظهر « ترافيور » و « تالسمان » فى شرق الاطلانطيق من سنة ١٨٨٠ الى سنة ١٨٨٣ . وأدت الثانية واجبها نحو البحر الابيض المتوسط بواسطة السفينة « واشنجتن » . وطوفت سفينتها « فيتور بيزانى » حول الارض

حتى تلك الامارة السعيدة . الضاحكة وسط ابتسام الرفييرا قدر لها أن يجلس على عرشها أمير عالم من سلالة الجريما لدى الابطال . هو البير الأول أمير موناكو . ارتاد المحيطات بين سنة ١٨٨٥ حتى وفاته فى سنة ١٩٢٢ على يخوته الفخمة «أيروندل» الاولى والثانية و « برنسيس أليس » الاولى والثانية . وهو صاحب الايادى البيضاء على الأقيانوغرافيا اذ ابتنى لها معهدا فى قلب الحى اللاتينى بباريس . ومتحفا على صخرة موناكو العالية هو كعبة القاصدين ، سواء من العلماء لدراسة مجموعاته النادرة . أو من أهل اللهو فى مونت كارلو لمشاهدة الاكواريوم

وسواء كانت روسيا بالسفينة « فتياز » التى طافت حول الأرض . أو النمسا بالسفينة « بولا » التى درست الحوض الشرقى للبحر الابيض واخترقت قناة السويس وجابت البحر الاحمر أو نانسن على ظهر « فرام » فى المحيط المنجمد الشمالى . أو الدانيمارك بسفينتها « إنجولف » فلم ترض لنفسها دولة من الدول الحية — تلك الدول التى يعتقد كثير منا أننا ساويناها أو نكاد لبضع طرقات فتحناها أو مبان أقمناها أو أعلام وضعناها على غير مسميات . — أن تتقاعس فى القيام بواجبها نحو نفسها ونحو الانسانية جمعاء .

كلا . لم تتريث بلجيكا عن توجيه بعثتها الى القطب الجنوبى بين سنة ١٨٩٧ وسنة ١٨٩٩ . ولم تتوسد ألمانيا أوراق غارها بل عادت الى كتابة اسمها فى تاريخ علوم البحار اذ وجهت « الفالديفيا » الى الاطلانطيق والمحيط الهندى والمحيط المنجمد الجنوبى ما سمحت ثلوجه .

كلا ولا هولندة التى أضافت جوهرة الى تاج العلم ببعثتها على ظهر « السيبوجا » حول جزر الهند الشرقية « سنة ١٨٩٩ — سنة ١٩٠٠ »

وكما اختتم القرن الماضى بتلك الدول وهى فى ميدان العلم أفراس رهان فقد افتتح القرن العشرين ببعثات أخرى تحمل أسماء مجيدة . ويكفينا ختاما لهذا المقال أن نذكر أسماء الدول التى اشتركت فى دراسة المحيطات منذ أوائل هذا القرن

فهى هى موناكو وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة وانجلترا والنرويج والدانيمارك وهى هى دواما وتكرارا .



إلى الواحات الخارجة

جنة الصحراء الغربية

(وجزيرة الناعمين) فى عرف قدماء المصريين

من الأصقاع الجديرة بالزيارة فى مصر الواحات الغربية تلك التى نجهل عنها كل شيء ولا نذكرها الا فى مقام التشويه أو العقاب أو النفى كأنها شقة من الجحيم. فكرت فى زيارة تلك الناحية المنبوذة لأرى ما فيها من رهبة ووحشة فاذا بى أنتقل الى جنة يانعة هواؤها رائق عليل، وثمرها وافر عميم، وماؤها دافق غزير، يحف بكل أولئك كثبان من الرمل الناعم النقى تعلو وراءها نجاد صخرية تمتد إلى الآفاق مما جعل الواحة فى ظنى خير مزار فى الربيع وشطر من الشتاء

أقلنى اليها القطار من مصر الى مواصلة الواحات فى عشر ساعات وهناك انتقلت الى قطار الواحات الصغير الذى سار بنا بين ست ساعات وسبع الى الخارجة فأخذ ذاك القطار يشق طريقه وسط الحقول الزراعية مسافة هى دون خمسة كيلومترات بعدها بدأ يصعد تدريجيا وقد استحال الطمى الراسب على الأرض رمالا وعند الكيلو السادس وقفنا بمحطة: القارة وهى محطة عند اتصال الهضبة الصحراوية بالسهول الفيضية الخصبة. بعدها أوغل القطار فى الصحراء صاعدا وسط واد مجدب ظل يختنق تدريجيا وتقارب القطار جوانبه الصخرية المشرفة حتى اذا قاربنا الكيلو ٤٠ كنا فوق هضبة تنتثر بالحصى وكلما قطعنا ثلاثين كيلومترا كنا نقف فى محطة موحشة يأخذ القطار منها الماء ولا يقطنها من الأهلين نفر. وبعد نصف الهضبة دخلنا شبه وادى فسيح غير محدود الجوانب يسميه القوم «وادى البطيخ» لأنه يغص بكرات الصخر المسودة فى أحجام مختلفة فتبدو وكأنها البطيخ وعند الكيلو ١٤٦ بدأنا نهوى خلال مجرى جاف جوانبه رائعة وكان الهبوط سريعا وعرا حتى أن القاطرة حبست بخارها فكانت تهوى المسافة كلها بقوة انحدار ليس غير، ولبثنا نتلوى ليات متعاقبة وسط ذاك الصخر المجدب حتى خرجنا الى سهل أدى بنا الى محطة: المحاريق: عند الكيلو ١٦٥ وهى بدء الوهدة التى تتوسطها الواحات ولذلك كنا نبصر على بعد بقاعا تزينها الخضرة فى شبح فاتر. والمحاريق محلة لا بأس بمبانيها. كانت قد اتخذت مقرا للنفى الادارى وكان يرسل اليها المحكوم عليهم من كافة الطبقات حتى علية القوم من المغضوب عليهم وكانوا يتركون أحرارا بعائلاتهم يتجولون الى حدود معينة وراءها يقف الهجانة لكيلا يتجاوز المجرمون الحدود، والفقير منهم كان يكاف عملا يؤجر عليه خمسة قروش فى اليوم. لكن الحكومة رأت فى النفى أداة للتشفى والانتقام وبخاصة من العمد الذين كانوا يسعون الى نفى من يكرهون. هذا الى المبالغ الطائلة التى تكلفتها الحكومة فى الانفاق على النفى لذلك قررت الغاءه.

قمنا الى محطة الشركة: وسميت كذلك لأنها كانت المستودع الرئيسى لشركة سكة حديد الواحات وكانت شركة انجليزية سعت بمجهود كبير أن تبيع متاعها للحكومة لأنها خسرت خسائر فادحة ولم يسد الخط شيئا يذكر من نفقاته وتمت الصفقة سنة ١٩٠٩ ودفعت الحكومة ربع مليون جنيه فأيدت بذلك ما يعلمه الأجانب عن سخائنا العميم. وهى لا تزال تخسر فيها كل عام، اذ من ايرادها البالغ أربعة آلاف جنيه يخص خط الواحات الف جنيه وهذا المبلغ لا يذكر بجانب النفقات. وجل الايراد وقف على البلح فى شهور الصيف

أخيرا عند الكيلو ١٩٥ دخلنا محطة الواحات الخارجة وقادنى الغلام الى نزل بديع ما كنت أتخيل وجوده فى تلك الناحية النائية هو «فيلا» أنيقة تزينها الأشجار الباسقة وتحوطها كثبان الرمل الناعمة. يديرها مصرى يدعى «مصطفى عمر» ويقوم على خدمة النزلاء والسائحين خير قيام، ولقد تصفحت سجل الزائرين عنده فكان من بينهم الكثير من الوجهاء، مصريين وأجانب وبينهم بعض الأمراء. على أنى أسفت لما علمت أن الرجل لا يكاد يتكسب من وراء عمله هذا شيئا ولا تكاد تساعده مصلحة السكة الحديد بشىء حتى ولا بزيادة الدعاية لمنطقة الواحات وتخفيض أجور السفر اليها كى يزيد اقبال السائحين عليها كما كانت الحال فى عهد الشركة

الأنجليزية التى كانت تروج للواحات فكان عدد من يؤمها يفوق المئات سنويا ، أما اليوم فلا نكاد نحن المصريين نسمع عن الأقاليم شيئا رغم ما فيه من جاذبية كبيرة



معبد هيبيس بناه دارا الاول « الفارسى » تمجيدا لآمون

قمت أتجول فى المدينة فبدأت بزيارة آثارها التاريخية فالواحة كانت عامرة أيام قدماء المصريين، وابان حكم الرومان ولعل أجل آثارها : معبد هيبيس الذى بناه دارا الأول فى القرن الخامس قبل الميلاد تمجيدا لآمون والمعبد عظيم الامتداد شامخ العمد فاخر البنيان يكاد يحاكى معابد الكرنك

وهناك مدافن رومانية قديمة بها بضع مئين من المقابر أقامها الروم من اللبن فى قباب صغيرة تزينها فى البعض صور القديسين وفى البعض الآخر أشباه البوائك والأعمدة

وسكان الواحات : يمتون بصلة الى المصريين القدماء والى الرومانيين، وقد لاحظت ذلك فى سحنهم المصفرة وتقاطيعهم النحيلة الممطوطة ، ولا يزال للعائلات الرومانية الصرفة هناك بقية فى اثنتين : عائلة الصنديدية ، عائلة الأدارسة . ويمتازون بأدمغتهم المنبطحة من نواصيها . والعجيب أن أهل البلاد اعتنقوا الاسلام جميعا فلا تجد منهم مسيحيا واحدا ويظهر انهم أسلموا مجبرين وكانوا يعتصمون بالصحراء هروبا من أراضى الريف وما أثقلها من ضرائب ابان حكم المماليك ، وهم لا يزالون يحتفظون بالكثير من الشعائر المسيحية رغم أنهم مسلمون ، فمثلا شاهدتهم يعدون سعف النخل الأبيض لضفره فى أشكال عدة احتفالا (بحد الزعف) على نحو ما يفعل اخواننا الأقباط هنا . وبينهم مسجد ذو مئذنة قصيرة كان من قبل كنيسة .

ومن أعجب ما راقنى مبانى القوم ومساكنهم فهى من طابق واحد أو اثنين تبنى باللبن وتتجمع كلها فى كتلة واحدة تشقها سراديب ضيقة سقوفها واطئة لا يستطيع الانسان السير فيها الا منحنيا ولياتها من الأعاجيب ، ولا تتخللها فتحات أو نوافذ قط ، لذلك كانت حالكة الظلام فى رائعة النهار ، ومنها ناحية يسمونها (الهدرة) أرضها صخرية زلقة مغضنة وعرة . وسط ذاك الظلام الدامس زلقت قدماى فيها مرتين . ولقد كانت تلك السراديب وسيلة من وسائل الدفاع ضد غارات البدو والدراويش الذين طالما باغتوا البلاد بغاراتهم ، فكان الواحد من الأهلين يعتصم بتلك المفاوز ليمنع العدو من اختراق حرمة داره ، وفوق ذلك فهى تقيهم وهج الشمس المحرقة صيفا ، ولما رأت مصلحة الصحة اليوم ما يخلفه ذلك الضيق والظلام من الأوساخ وخطر الأمراض ، فتحت خلال الطرق كوى صغيرة فى مسافات متباعدة انارتها اليوم بعض الشىء على انى رغم ذلك كنت أسير فى سراديب كأنها السرابيوم أو التيه ظلاما ووحشة ، وكثيرا ما كنت أصطدم بالمارة خصوصا عند مفاجآت الثنيات العديدة لتلك المفاوز وقد استرعى نظرى السقاءون وكلهم من مكفوفى البصر ، يسيرون فى تلك الطرق بخفة عجيبة وعلى ظهورهم قرب الماء، ولا يخطئون البيوت ولا تزل أقدامهم أبدا . ولقد أضافنى رب بيت من تلك البيوت، فكنت أتوقع ان آوى الى كوخ صغير أو قاعة وسط تلك المطاوى الحالكة، ثم دخلنا البيت من كوة صغيرة واشد ما كانت دهشتى عند مارأيتنى وسط بيت مشيد البناء طلى بالملاط ورصف بالبلاط على نحو ما نقطن هنا فى مصر

والعيون والينابيع : منثورة فى الواحات فى كثرة لا يكاد يحصيها العد حتى قيل أن فى الواحة الخارجة وحدها ثمانمائة عين بين صغير وكبير ، وهذا الماء الغزير يتفجر من طبقة من الخراسان الرملى على عمق يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ مترا والواحات فى وهدة متوسط ارتفاعها عن سطح البحر يزيد على خمسين مترا وتحف بها النجاد الجيرية والطباشيرية من جميع الجوانب تعلو فى مدرجات أعلاها فوق اربعمائة متر وبخاصة ناحية الغرب وزرع تلك الواحة ٣٠٠ ك م فى الطول وبين ٣٠ و ٨٠ فى العرض . ومن صدوع ذاك الصخر الجيرى تتفجر العيون العديدة ، وغالب العيون كانت مستغلة فى عهد الرومان فكانوا يحفرون حول العين متسعا الى عمق كبير ويضعون منقور الخشب وجذوع النخل فى شكل الأنابيب لحصر الماء ، ثم تطمر الحفرة ، ويستدل القوم على وجود العيون كلما رأوا منخفضا رطبا يبدو نز الماء فيه ، وتجاوره ربوة .

(يتبع)

بليـــاس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكى موريس ماترلنك
ترجمة الدكتور حسن صادق

« تابع »

بلياس — أخاف عليك السقوط . . . سأمسك يدك . . .

مليزاند — لاتفعل . أريد أن أغمس يدى فى الماء . . . من ينظر اليهما ، يظن أن بهما اليوم مرضا !

بلياس — آوه ! آوه ! حذار ، حذار من الوقوع فى الماء ! مليزاند ! اوه ! شعرك !

مليزاند — (تنهض) لا أستطيع أن أبلغه !

بلياس — شعرك انغمس فى الماء

مليزاند — نعم . انه أطول من ذراعى . . . انه أطول منى (سكوت)

بلياس — لقد وجدك على حافة عين مثل هذه تبكين . أتذكرين ؟

مليزاند — نعم

بلياس — وماذا قال لك ؟

مليزاند — لاشىء . . . لم أعد أذكر . . . نسيت كل كلماته

بلياس — وهل دنا منك ؟

مليزاند — نعم . وأراد أن يقبلنى

بلياس — وأنت ؟ هل أرضيت رغبته ؟

مليزاند — كلا

بلياس — ولماذا ؟

مليزاند — اوه ! رأيت فى قاع الماء شيئا يتحرك !

بلياس — كدت تسقطين فى الماء ! . . . بماذا تعبثين ؟

مليزاند — بالخاتم الذى أعطانى إياه

بلياس — لاتلعبى به فوق هذا الماء العميق

مليزاند — يداى لاترتعدان

بلياس — ما أشد بريقه ! لا تقذفيه فى الفضاء هكذا !

مليزاند — آوه !

بلياس — هل سقط ؟

مليزاند — سقط فى الماء !

بلياس — أى ، هو ! أين هو ؟

مليزاند — لم أره أثناء وقوعه

بلياس — أعتقد أنى أراه يشع فى الماء بريقا

مليزاند — خاتمى ؟

بلياس — نعم . نعم . . . انظرى جيدا

مليزاند — آوه ! إنه منا بعيد ! لا . لا . ليس اياه . . . لقد فقد وغاب عن البصر . . . لم يعد إلا دائرة كبيرة على سطح الماء . . . ماذا نصنع الآن ؟

بلياس — لاتجزعى من أجل خاتم . هذا أمر ضئيل الشأن . سنجده أو نجد غيره

مليزاند — كلا لن نجده ولن نجد غيره أيضا ! كنت أعتقد أنه فى يدى . . . وكانت يدى حريصةعليه ، ولكنهوقع فى الماء على الرغم منهذا الحرص . . . قذفته فىالفضاء بقوة شديدة كانىأردت له أن يبلغ الشمس !

بلياس — تعالى سنعود للبحث عنه فى يوم آخر . تعالى لقد حان الوقت . سيبحثون عنا بعد قليل . . . سمعت ساعة البرج تدق اثنتى عشرة مرة تعلن الى الناس منتصف النهار ، وقد سقط الخاتم فى الماء قبل ان تتلاشى الضربة الأخيرة فى الهواء !

مليزاند — ماذا نقول لأخيك (جولو) اذا سأل عنه ؟

بلياس — الحقيقة ، الحقيقة . الحقيقة ! (يخرجان)

المنظر الثانى

(غرفة فى القصر — جولو راقد على فراش ومليزاند جالسة بالقرب منه)

جولو — آه آه : خلى عنك الجزع فليس ماأصابنى بذى خطر إنى فى حال حسنة ولن يكون لجراحى أثر سىء . . ولكن لا أستطيع تفسير ماحدث ! كنت أصيد فىالغابة مبتهجا هادئا . . . ثم جمح جوادى دفعة واحدة دون أن أعرف السبب . . . هل رأى شيئا غريبا مخوفا أدخل على نفسه الرعب والفزع ؟ . . سمعت ساعة البرج تدق اثنتى عشرة مرة تعلن الى الناس منتصف النهار ، وقبل أن تتلاشى الضربة الاخيرة فىالهواء ، أقبل الجواد فجأة وجرى كغرير مجنون . . . وظل فى عدوه حتى صدم شجرة غليظة . . . وقعت على الارض ، وأعتقد أن الجوادوقع على صدرى . . شعرت فى تلك اللحظة بأن الغابة كلها تثقل على وتنتزع منى الحياة فى ألم مبرح . . . وأيقنت أن قلبى يتمزق . . . ولكنه والحمد لله سليم فى مكانه . . . لا تجزعى ولا تخافى . ستلتئم الجراح وتعود إلى العافية الشاملة

مليزاند — أتشرب جرعة من الماء ؟

جولو — ليس بى ظمأ . شكرا لك

مليزاند — أتريد مصدغة أخرى ؟ . . . أرى على هذه نقطة صغيرة من الدم

جولو — كلا . لست فى حاجة الى مصدغة أخرى

مليزاند — أصدقنى القول ياجولو ، هل تتألم من جراحك كثـــيرا ؟

جولو — كلا . كلا . ليست هذه أول مرة تصيبنى فيها الجراح . . . خلقت من حديد ودم

مليزاند — أغمض عينيك وتملق النوم . سأقضى الليل كله بجوارك

جولو — جنبى نفسك التعب فلست فى حاجة إلى شيء . سأنام كالطفـــل الوديع . . . ماذا جرى ؟ مليزاند ! لماذا تبكين دفعة واحدة

مليزاند — (تستخرط فى البكاء) إنى . . . إنى مريضة

جولو — مريضة ؟ ! ماذا بك ؟

مليزاند — لاأدرى . . . الحيـاة هنا تغمز على المرض . . آثرت أن أقول لك ذلك اليوم . . . لست بسعيدة هنا

جولو — ماذا حدث ؟ ! هل أساء اليك أحد ؟

مليزاند — كلا . ليس هذا ما أعنيه . . .

جولو — إنك تخفين عنى شيئـا فى أغوار نفسك . أنفضى إلى جملة حالك . من الذى يكدر عليك صفو حياتك ؟ أهو الملك ، أم أمى أم أخى بلياس ؟

مليزاند — لاأحد يكدر على صفو الحيـاة . إنك لا تستطيع إدراك نفسى . . . شيء أقوى منى . . .

جولو — لا تسلمى زمام نفسك إلى أوهام تبلبـل بالك وتشقيك . ماذا تريدين أن أفعل ؟ ! هل عدت طفلة غرة تتلاعب بلبك أفكار الخيال ؟ ! هل زهدت فى زوجك ورغبت فى هجره ؟

مليزاند — آوه كلا . ليس هذا هو . . أتمنى أن أذهب معك . . . لا اريد أن أعيش هنا بعد اليوم . . . أشعر بأن عمرى قصير ولن أستمتع بالحياة طويلا !

جولو — ولكنى أريد أن أقف على علة ذلك . . . سيعتقد الناس إذا سمعوا قولك ، أنك فقدت رشدك ، أو أنك طفلة يغرر بها حلم ساذج . تكلمى أهو بلياس الذى . . . ؟يقينى أنه لا يتحدث اليك كثيرا

(يتبع)

الأمل اليـــائس

« بقيـــة المنشور على صفحة ٦ »

لها رفيقة فتاة من أهل الاقاليم ولدت فى اسرة شريفة ولكن مولدها لم يكن شرعيا ، وكانت هذه الفتاة مدموازيل لسبيناس ذكية بارعة الذكاء ، حساسة قوية الحس ، مثقفة واسعة الثقافة ، وكانت المودة بينها وبين سيدتها قوية متينة ، دامت عشر سنين لم يكدر صفوها مكدر . ثم لاحظت صاحبة الدار ان زوارها أو فريقا منهم اذا انصرفوا عنها لم يخرجوا ، وانما أتموا سمرهم عند الفتاة ، فغاظها ذلك وكانت القطيعـة بين الصديقتين ، ولكنها لم تكن قطيعة مألوفة إنما كانت حدثا من أحداث العصر فى باريس ، انقسم له الادباء والفلاسفة انقساما عظيما ، تعصب بعضهم للشيخة وتعصب بعضهم للفتاة ، وكانت كثرة الفلاسفة وعلى رأسهم دالمبير d'Alembert من أنصار الفتاة وكانت الارستقراطية المعتدلة والمحافظة من أنصار الشيخة .

ثم استأنفت الحياة المنظمة طريقها عند صاحبتنا ، واتخذت الفتاة لها ناديا أو صالونا أدبيـاً واشتدت المنافسة بين هاتين المرأتين . وصاحبتنا الآن فى الثامنة والستين من عمرها قد فقدت البصر منذ ثمان عشر عاما ، وعظمت مكانتها فى أوربا حتى لم يكن عظيم من الاوربيين يزور باريس الا رأى حقا عليه لنفسه ولمكانته أن يلقـاها ويتحدث اليها . وفى اكتوبر من هذه السنة ١٧٦٥ زار باريس رجل من عظماء الانجلـــيز هو هوراس ولبول Horace Walpole . كان أبوه روبير ولبول Robert Walpole وزيرا وكان هو عضوا فى البرلمان . فلما مات أبوه ترك السياسة ، وانصرف الى الادب والفن ، وكان فى الخمسين من عمره . ولم ير هذا الرجل بدا من أن يزور صاحبتنا هذه ويغشى ناديها كما كان يغشى أندية الادب والسياسة كلها فى باريس . فلما رأى هذه الشيخة أنكرها ، وكتب الى صديق له يصفها بأنها عجوز عمياء فاجرة العقل . على أن وقتا قصيرا لم يمض على هذه الزيارة حتى تغير الامر بين هذا الانجليزى وهذه الفرنسية ، وتكررت الزيارة فوقع الانجليزى من نفس هذه المرأة موقعا غريبا رد اليها الشباب بل رد اليها الصبى فاحبته . وأنا أعنى بهذه الكلمة معناها . احبتـه وقد أشرفت على السبعين ولم يرفض هو هذا الحب . ومن المحقق انه لم يلق هـذا الحب بمثله ، ولكنه أضمر لهذه المرأة مودة قوية صادقة لم تغيرها الايام واظهر بها اعجابا لاحد له . واتصلت أسباب المودة والحب بينهما ما أقام فى باريس ، فلما رجع الى لندرة اتصلت بينهما الكتابة ،

وكان يأتي الى باريس من حين الى حين ليرى حبيبته أو ليرى عاشقته ، أو ليرى يتيمته ، كما كانت تسمى نفسها ، فقد كانت تسمى نفسها يتيمة وتسميه هو وصيا . وكان هو يسميها ابنته الصغيرة . وكان الحنان بينهما كأقوى ما عرف الناس من الحنان بين المحبين . وكانت نتيجة هذا الحب أربع مجلدات نشرت بعد موتهما وفيها ثمانمائة من الرسائل التي اتصلت بينهما . وهي آيات من آيات الادب الفرنسي لا أكثر ولا أقل ، فيها تصوير لهذه العواطف النادرة ، الشاذة ، التي لم يألفها الناس والتي تملأ قلوبهم مع ذلك رحمة وبرا ، وإشفاقا ، وعطفا . وما رأيك في هذه الضريرة التي نيفت على السبعين والتي تكتب لصاحبها رسائل حب وغرام كرسائل الفتيات اللاتي لم يتجاوزن العشرين . على أن صاحبها كان انجليزيا ، ومعنى ذلك أنه كان يخاف السخرية ، والمزاح ، وكانت الرقابة مضروبة على الرسائل في انجلترا ذلك الوقت . فكان صاحبنا مروعا دائما يخشى أن تفض رسائل صاحبته ، وان يعرف ما فيها من هذا الحب الغريب ، فيتندر الناس به في القصر وفي الاندية . فكان يرد صاحبته الى القصد في تصوير عواطفها الحارة ، وكانت هي تخاصمه في ذلك ، وكان الامر يفسد بينهما أحيانا ، ولكنه لا يلبث أن يعود الى خير ما كان . وانقطعت رسائله عنها مرة فكتبت اليه : يظهر انك لا تريد أن تظهرني من أمرك على شيء ، فاحذر أيها الوصي أن تصبر على ذلك فاني خليقة ان فعلت أن ارسل اليك سكرتيري وان أكلفه الاسراع الى لندرة وآمره ان يلزمك وان يرسل الى بأنبائك ، وأن يعلن الى الناس جميعا وفي كل مكان أني يتيمتك ، وانك وصيي ، واني أحبك ، وان يهيأ لي عندك مكانا فالحق به ، وأعلن الى الناس جميعا ما بيننا ، لا أخاف فضيحة مهما تكن ، فاختر لنفسك بين الفضيحة والكتابة الى . ولعلها كانت في بعض الوقت تذعن وتطيع ، وترد نفسها الى القصد ثم تثور فترسل نفسها على سجيتها وتطلق حبها صريحا حرآ . وكذلك عاشت هذه المرأة خمسة عشر عاما ، استرد قلبها فيها شبابه كله وتبينت هي وتبين هو وتبين الناس في عصرهما ، ومن بعدهما ان ما اندفعت فيه هذه المرأة من العبث واللهو ، ومن المجون والفساد ، ثم من الجد الخصب والنشاط المنتج ، كل ذلك لم يكن الا ضيقا بالحياة وافتقاداً لهذا النور الذي يحببها الى النفس . وهو الحب ، ومصارعة لهذا العدو الفاتك وهو اليأس . فلما بلغت السبعين أو كادت تبلغها ظفرت بالحب عند هذا الانجليزي ، وظفرت به من غير طريقه كما كان يقول المعاصرون ، فان العيون هي أوضح طرق الحب الى النفوس ، ولكن الحب قد يسلك الى النفوس طريق الآذان كما قال شاعرنا القديم . وأكبر الظن أن صوت هذا الانجليزي هو الذي حمل الحب الى نفس هذه الفرنسية فثبته فيها تثبيتا .

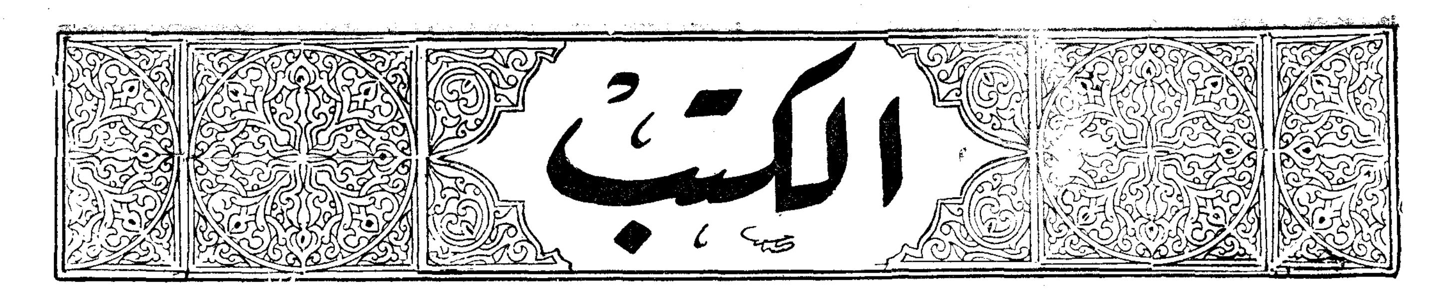
وفي سنة ١٧٨٠ ماتت هذه المرأة وكتبت قبل موتها بقليل جدا الى صاحبها كتابا تنبؤه فيه بقرب آخرتها . وتنبؤه بانها لا تأسف لفراق الحياة ، لأنها لا ترى في الحياة خيرا بعد أن كتب اليها أن لا تلقاه . وتنصح له بأن يستمتع بالحياة ما استطاع ، وتنبؤه بأنه سيحزن عليها ، فليس من اليسير أن يتعزى الناس عمن كان يؤثرهم بالحب . فلما أتمت املاء كتابها هم سكرتيرها الشيخ أن يقرأه عليها كعادته ، فلم يستطع لأنه كان يقطع قراءته بالبكاء . هنالك احست هذه المرأة المتشائمة اليائسة التي اسرفت في سوء الظن بالناس ؛ احست أن هذا السكرتير لم يكن يعمل عندها ليعيش . فقالت له بصوت خافت فيه نغمة الموت ، وفيه مع ذلك نغمة الرضى والغبطة أكنت تحبني اذا ؟

هذه صورة من صور هذه المرأة وهي من غير شك أشد هذه الصور اتصالا بالنفوس ، وتأثيرا في القلوب . ولكن لهذه المرأة صورا أخرى عظيمة الخطر جدا في حياة الأدب الفرنسي . فقد كانت ناقدة ، ولها في أدباء فرنسا ، وفي كبار أدبائها خاصة آراء قيمة تثير الأعجاب لرقتها ولبراعة الصيغ التي كانت تعلن فيها . كانت تؤثر فولتير ، وكانت تضيق بروسو فانظر الى هذه الجملة البديعة التي تنقد فيها أسلوب جان جاك : « ان لروسو حظا من الوضوح ، ولكنه وضوح البرق ، وله حظ من الحرارة ولكنها حرارة الحمى » .

واتصلت هذه المرأة بأصحاب السياسة ، واتصلت بالعظماء والأشراف وكانت منهم ، وقد كتبت اليهم وتلقت منهم الكتب وقد صورتهم وصوروها ، فهذه ناحية أخرى من حياتها لها أثرها في توضيح التاريخ السياسي والاجتماعي لفرنسا في القرن الثامن عشر وقبل الثورة الفرنسية الكبرى .

وبعد فلعل أحسن ما كتب عن هذه المرأة الى الآن فصلان كتبهما سانت بوف في أحاديث الاثنين تستطيع أن تقرأ أحدهما في الجزء الأول ، وثانيهما في الجزء الرابع عشر ، فان أردت الايجاز المقنع فاقرأ الفصل الذى نشرعنها في « مجلة العالمين » أول أغسطس ، فان أبيت أن تتكلف القراءة أو تشق على نفسك بالبحث فقدر هذا الوصف الذي كان يصفها به فولتير ، وفكر فيه فانه يعطيك منها صورة قوية ، تملأ نفسك رحمة واعجابا . فقد كان فولتير يسميها : « الضريرة المبصرة » .

طه حسين



الفجر

مجموعة من الشعر

ياويح مصر من الشعر والشعراء! ياويحها من هذا الشعر الزائف الذى يملأ الصحف والدواوين! فكل من اهتزت فى يده يراعة فى هذا البلد يريد أن يكون شاعرا، حتى غصت بالشعراء حجرات المدارس!! الشعر فى كل أقطار الارض عبقرية لا يسمو اليها الا الاقلون، أما فى مصر، فهى العوبة اللاعب ولهو اللاهى

عندى أنه إن لم يرتفع ديوان الشعر بقارئه الى مستو أعلى من مستواه الشعورى والفكرى، بحيث لو كان هائما فى الارض حاق به فى السماء، وان كان القارىء فى السماء الاولى، سما به الشعر الى السماء السابعة، أقول ان لم يكن الشعر كذلك، فأولى به أن يحبس فى صدور قائليه، فلا يجد سبيلا الى المطابع والمكاتب ثم الى رءوس القراء. أما هذا الهراء الذى يتردد كل يوم، فى كل صحيفة وفى كل مجال، فيجب أن ينبذ، لان الحياة أثمن من أن تضيع فى مثله،

وأقسم بالله لو أن الامر بيدى، لانزلت العقاب - العقاب الادنى على الاقل - بهذه الفئة المتشاعرة التى ضقنا بها ذرعا.

أقول ذلك بمناسبة هذا الديوان الذى أطلق عليه صاحبه اسم «الفجر»، ودفعه الىّ الاستاذ الزيات لاقرأه وأعلق عليه، فانطلقت أبحث فيه عن شعور قوى واحد أو فكرة عالية فلم أجد! فيم اذن قيل، وفيم طبع ونشر، لست أدرى. استمع اليه حين يقول فى استقبال صديق:

مرحبا، مرحبا، بخير صديق	غاب عنا عاما فخلناه دهرا
مرحبا، مرحبا، بخير صديق	كان عن أصدقائه مزورا
رام بعدا عنا، ورام خصاما	فجفانا واستبدل الوصل هجرا
بينما نحن لانطيق فراقا	لصديق، وان تباعد شهرا

وبعد فأنى أتوجه بالرثاء والاشفاق، لا الى مؤلف الديوان ولكن الى قرائه: فهو شعور ضعيف فى لفظ ركيك، سيء الطبع خشن الورق.

ز. ن. م

القصاص

هذه القصة من تأليف الكاتب الانجليزى المعروف جون جالزورثى وهى من أشهر قصصه ان لم نقل انها أقوى قصة له على الاطلاق. وقد نقلها الى العربية الاستاذان صالح بكتاش والسيد كامل الشرقاوى

يهاجم المؤلف فى هذه القصة العدالة كما تفهمها القوانين الصارمة التى لاتحتسب للمشاعر المختلفة والمواقف المتباينة حسابا. فهى مأساة تدور حول زوجة لاقت من زوجها الغليظ عيشة مريرة. ومع ذلك فلا يبيح لها القانون أن تنفصل عنه لتتزوج من شاب آخر أحبها وأحبته. كذلك انتقد المؤلف نظام السجون وبين كيف أنها أقرب الى افساد النفوس الطيبة منها الى اصلاح النفوس الشريرة.

ونحب أن نلاحظ انحرافا فى ترجمة عنوان القصة، فقد كان أولى أن يكون العدالة أو القضاء لأنهما أصدق تعريباً لكلمة Jnstice من هذا العنوان الحالى

ز. ن. م

---

١ — القوميات

٢ — روح المبدأ والوطن

هما مجموعتان من الشعر نظمهما الأديب السورى حسن حفار وهما كما يدل عليهما العنوانان، يفيضان بحماسة الشباب وقوة الوطنية وسمو الطموح، فلا يسعك حين تلاوة مايحويان من شعر الا ان تحس مع الشاعر نزعة وثابة الى الحرية والعزة القومية كما تلمح حنينا ظاهرا الى الاقطار العربية عامة

ولكننا يجب أن نشير الى ضعف فى اللفظ يسود الكتابين. ونرجو أن يتاح لهذا الشعور المتدفق لفظ يناسبه قوة وجزالة

ز. ن. م

طبعت بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المدابغ